إستدلال القرآن

على التوحيد بالحياة

الأستاذ
مرتضى مطهري

ترجمة
جعفر صادق الخليلي



دار التعارف للمطبوعات
دار الرسول الأكرم

استدلال القرآن على التوحيد بالحياة

الدعاء

مسائل دينية

درس من الربيع

انكار في غير محله

جهاز الادراك عند البشر

العقل والقلب

الاستاذ الشهيد مرتضى مطهري

ترجمة : جعفر صادق الخليلي



دار الرسول الأكرم

دار المعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

« . . . أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء ، والطبقة المثقفة المتنورة الملتزمة ، الاَّ يدعوا دسائس غير المسلمين تنسيهم مطالعة كتب هذا الأستاذ العزيز . . . » .

الامام الخميني (قده)



المقدمة

إن مجموع ما أدرج في هذا الكتاب عبارة عن بضع محاضرات أو مقالات ، من أصل ثلاثين ، لأساتذة مختلفين ألقيت أو نشرت في ما بين عامي ١٣٣٩ الى ١٣٤١ (هـ.ش)، في مجالس شهرية كانت تعقد بطهران في دار تقع على مفترق (زاله) ، وبحضور بضع مئات من مختلف طبقات الناس.

لقد دامت هذه المجالس، التي عرفت باسم (المجلس الديني الشهري) ، سنتين ونصفاً ، وكان على الذي يريد القاء محاضرة في موضوع من المواضيع في تلك الجلسات أن يهيء نفسه بالمطالعة الكافية . وبعد الالقاء ، كانت المحاضرة تنقح وتعد للجلسة التالية في الشهر التالي ، حيث كانت توزع على المشتركين في كرّاس ، جمعت فيما بعد في ثلاث مجلدات ، صدرت تحت عنوان (محاضرة الشهر) ووضعت في متناول القرّاء.

وعلى الرغم من أن هذه الجلسات لم تستطع أن تعيش طويلاً ، إلاّ أنها كانت منشأ خير كثير ، إذ كانت سبباً في اجراء

سلسلة من الاصلاحات وعمليات التطوير والتجديد على صعيد أوسع وأشمل في قضايا التبليغ والارشاد الاسلامي.

وفي غضـون الأشهر الثـلاثين من عمر تلك الجلسـات ، كان أكثر الناس تعاوناً معنا في أمور (المجلس) وأشدنا حماساً له ، العالم المحقق الجليل المرحوم الدكتـور محمد ابـراهيم آيتي رضوان الله عليه.

لقد اقترح عليّ بعض الأصدقاء أن أنشر هذه المحاضرات في كتاب مستقل . واني على الرغم من ضيق وقتي ، راجعتها مرة أخرى، وأجريت عليها بعض التنقيحات ، وها إني أضعها في متناول الراغبين ، راجياً أن تكون فاتحة خيـر للطريق الى بناء المجتمع الاسلامي وسعادته.

مرتضى مطهري
٦ صفر ١٣٩٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

في الكلمة التي قدمت بها لأول كتاب ترجمته من كتب الأستاذ الشهيد مطهري، وهو كتاب « معرفة القرآن » قلت:

« . . . لقد كانت السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية سنوات حرب أعنف وأشد. كانت سنوات من حرب العقائد والأفكار والايديولوجيات التي وفدت على الشرق مع ما ورد من الغرب من بضائع وعادات. إلاّ أنها كانت حرباً غير متكافئة، وقودها الطبقة الكادحة، والشباب المثقف الأعزل، الذي لولا تأصل فطرته الدينية، وتشبثه بمبادئه الأصيلة، لجرفه التيار العارم. ومع ذلك فالخسائر لم تكن قليلة، فقد جرف التيار الكثير. ولقد كان بالامكان تقليل الخسائر الى أدنى حد، لو أن المدافعين كانوا قد تسلحوا بمثل ما تسلح به العلماء الأفاضل في ايران وغيرها، فهم الى جانب تضلعهم في العلوم الدينية، درسوا العلوم الحديثة، وأخذوا من لغة العصر جانباً مهماً اعانهم على ايصال الأسس التي بني عليها

الاسلام الى قلوب الكثرة الكاثرة من عموم ابناء الشعب وعقولهم ، بلغة سلسة ، ومنطق سليم ، ومقارعة الحجة بالحجة ، ودحض المفتريات بالأدلة الدامغة ، مما حفظ للأمة الاسلامية في ايران وغيرها وحدتها وتوحدها ، وتمسكها بعلمائها الأعلام .

واليوم ، وأنا نزيل طهران ، اجدني محاطاً بحشد من خيرة العلماء المتنورين المجاهدين ، وبفيض من الكتب القيمة التي تعين الناس ، عامة وخاصة ، على التمسك بالاسلام فكراً وسلوكاً .

ولقد أتاح لي حسن الحظ أن أقوم بجولة ممتعة بين مجموعة مؤلفات الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري ، اطاعة لوصية الامام . . . وإذا بالكلمة تند من فمي : « وجدته ! » .

نعم وجدته . فهذا انسان عرف نفسه ، وعرف بني جلدته ، وعرف ما ينبغي لهم ، وما ينبغي له ، فقدمه في تدرج سليم ، وفي لغة سائغة . خطباً ، ومحاضرات ، وكتباً ، بخبرة الطبيب الحاذق العارف بالداء ، فيصف له الدواء بنية خالصة تقرباً إلى الله تعالى . فما كان مني إلّا أن عقدت العزم ، بعون الله على أن أقدم هذه الكتب النفيسة الى ابناء اللغة العربية ، تلك اللغة الشريفة التي ما فتىء شهيدنا الأستاذ مطهري ينادي في كتبه بضرورة تعلمها وتعميمها حتى في المدارس الابتدائية . . . » .

وها أنا اليوم ـ بعد أن صدر الجزءان الأول والثاني من ترجمة « معرفة القرآن » ـ أفي بوعدي ، وقد أعانني الله على

تحقيقه ، فأتقدم الى القارىء العربي الكريم بسلسلة «محاضرات في الدين والاجتماع». وفي نيتي أن أجعل هذه السلسلة تشمل كل محاضرات الأستاذ الشهيد ومقالاته وكتبه ، باستثناء مقالاته الفلسفية الخالصة التي سوف اعدها للنشر ، ان شاء الله ، في سلسلة خاصة بها .

ومرة أخرى لا يسعني إلاّ أن أسجل تقديري وشكري لمؤسسة « بنياد بعثت » التي كانت سبباً في ما حباني به الله من توفيق، بما أضفته عليّ من تشجيع وتكريم . وأسأل الله للعاملين في سبيل الله حسن العاقبة . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

جعفر صادق الخليلي



- ١ -

استدلال القرآن على التوحيد بالحياة

الربيع والانبعاث:

إن موضوع الحياة والموت من الموضوعات التي ما برحت تدفع الناس الى التفكير والتأمل . والقرآن يتناول هذا الموضوع على أنه آية من آيات الله الكبرى ، وترد هذه السنّة الجارية في بعض الآيات على أنها آية من آيات قدرة ذاته المقدسة ، كما في الآية ١٦٤ من سورة البقرة . وترد في آيات أخرى على انها مثال لاستبدال نشء بنشء ، أو على انها انبعاث صغير يمكن أن يمثل البعث الأكبر ، يوم القيامة ، كما جاء في سورة فاطر ، حيث يقول :

﴿ وَاللَّهُ الَّذي أرسلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقناهُ إلى بَلدٍ ميّتٍ فأَحْيَيْنَا بِهِ الأرضَ بَعد مَوْتِهَا كَذَلِكَ النّشُورُ ﴾ .

أو كما جاء في سورة قٓ ، حيث يقول :

﴿ وَنـزَّلنا مِنَ السَّمـاء ماءً مبـاركاً فـأنبَتنا بـه جنّاتٍ وَحب الحصيـدِ ، والنَّخل بـاسِقاتٍ لهـا طلعٌ نضِيـد ، رِزقـاً للعبـاد

وأحيْينا به بلدة مَيْتاً كذلك الخروج) وفي بعض الآيات اشارة الى حالتي الموت والحياة ، كما في سورة الحج :

﴿ وتَرىٰ الأرضِ هامدةً فإذا أنزلْنا عليها الماء اهتزَّت وربَت وانبَتَتَ من كلِ زوجٍ بهيج ذَلِك بأنَّ اللَّهَ هو الحقُ وانَّه يُحْيي المَوْتَىٰ وأنَّه على كلِ شيء قدِير ﴾ وفي عدد من آيات أخر.

يعني القرآن كثيراً بأن يصف الله بالمحيي والمميت ، وبأن يجعل الإحياء صفة يختص بها الله تعالى ، وهناك الكثير من الآيات القرآنية بهذا الشأن لا موجب لذكرها . وإنما قصدنا هو التعرف على المنطق القرآني في هذا المجال .

إن مما يلفت النظر هو أن ما ورد من آيات عن التوحيد وعن القدرة الإلّهية الأزلية هو سنّة الإحياء والإماتة هذه التي نراها ، أي أن هذا الذي يقع أمام أعين الناس انما هو مظهر من مظاهر ملكوت الله .

وعلى الرغم من أن كثيراً من المسائل التي تتعلق بالحياة والموت ما زال مجهولاً وسراً من الأسرار عند الانسان ، هذا الانسان الذي نفذ الى قلب الذرة ، وجاب الفضاء ، ولعله سوف يسخّر قريباً النجوم والكواكب والشمس (وهنّ مسخّرات الآن ولكن قد يأتي وقت يسخّرها الانسان عن قرب كما يسخّر الأرض الآن) ، هذا الانسان نفسه يقف حائراً أمام الأسرار المعقدة الغامضة الكامنة في خلية حية واحدة !! .

يقول أحد العلماء المُحْدَثين : أتعلمون ما هو أهم وأعلى من خلق الأرض والسيارات ، بل وحتى من الكون برمته ؟ انه

هذه الخلية الصغيرة التي هي مادة الحياة ، هي (البروتوبلازم) أو جرثومة الحياة . ثم يأخذ بشرح عجائب أعمال هذه الذرة المجهرية وفعالياتها ، ففي الوقت الذي ما يزال كثير من المسائل المرتبطة بالحياة اسراراً لم تحل ، فانها درس بسيط ومفيد لنا لنعتبر به .

الحياة حقيقة أرفع من المادة :

إن المقدار الذي نستطيع أن نفهمه هو ان الحياة نور تسطع من أفق أعلى وأرفع على المادة المظلمة . ان المادة بذاتها ميتة لا حياة فيها ، ولكنها في ظروف معينة تكون على استعداد لتقبل ضوء افق أعلى وأرفع من أفق المادة وخواصها ، وان تكون تحت تصرف قوانينه الخاصة وتأثيراته ، وتصبح مغلوبة على امرها تجاهه .

إن الذين يحصرون افكارهم بالمادة ويحددونها بالجسم ، يجدون في هذا دليلاً واضحاً على وجود أفق أعلى وأرفع تتجلى مظاهره على هذه المادة التي لا روح فيها ، ثم تسترجع هذه المظاهر منها . وذلك الوجود يبسط ويقبض ، يحيي ويميت .

أما من حيث وجهة نظر المدرسة الإلّهية ، فان المادة والحياة لا يختلفان من حيث كونهما معاً من مخلوقات الله ، ومن صنع يده ، ودلائل على ذاته ، ولكن من حيث وجهة نظر الذين اقتصروا وحددوا انفسهم بحيث لا يتعدى شعاع نظرهم الى ما وراء جدار المادة وخصائصها ، وهم اتباع المدرسة المادية ، فإن عليهم ان يدركوا ان الوجود لا ينحصر بالجسم

وخواصه ، وإن هناك افقاً أعلى من الأجسام وأرفع ، وأن تأثيره يبلغ الأجسام نفسها . ان عالم الوجود لا ينحصر بقشر هذا الجسم ، بل هناك عوالم يستبطنها هذا العالم ، ويحاط بها ، وما سفر الحياة إلاَّ مظهر من مظاهر تلك العوالم ، حتى ان المادة ، إذا واتتها ظروف تصقلها ، فانها تعكس نور تلك العوالم ، وهي تلك المواد التي لها القابلية للحياة . انكم تشاهدون في جسم المادة الميت ضوء الحياة ، ترون في جوهر المادة السيال والمتحرك الذي يموت ويعود الى الحياة خيطاً ثابتاً من الحياة . فعليه ، هناك شيء ميت في ذاته ، وشيء حي في ذاته ، وشيء متغير وغير ثابت في ذاته ، وشيء باقٍ وثابت في ذاته ، وشيء لا هيئة ولا صورة له في ذاته ، وشيء هو ذاته هيئة وصورة فعلاً :

(المخلوقات ككأس من الماء الصافي الزلال
تسطع فيه صفات ذي الجلال)
(علمه وعدله ولطفه
كالنجمة إذ تجري على الماء الجاري)
(تبدل الماء في هذا الظرف مرّات
وصورتا القمر والنجم باقيتان)
(مضت قرون وهذا قرن جديد
والقمر باقٍ نفسه والماء ليس الماء)

هل الحياة من خصائص المادة ؟:

قد يتصور بعضهم ان الحياة جزء من خصائص المادة وانها ليست أمراً وارداً عليها مكملاً لها .

إن الجواب على هذا الموضوع يتطلب بحثاً علمياً عميقاً ، إلاَّ أن من الممكن القول بايجاز : إن المقدار الذي نستطيع أن ندركه هو أن أي عنصر مادي لا حياة له بمفرده ، وليست له صفة الحياة ، وانه إذا ما اضيف عنصر الى عنصر أو اكثر ، فغاية ما يحصل هو ان كل عنصر يعطي بعض ما عنده الى العنصر الآخر ولكنه لا يستطيع أن يعطي ما ليس عنده للآخر ، وعليه فان اكثر ما ينتجه التفاعل بين العناصر هو ان المجموع يتسم بخصائص عامة مشتركة لا تخرج عن خصائص كل عنصر ، وتتخلق حالة وسط . ولذلك فان العلماء ، وعلى الأخص العلماء المحدثين ، قد وجدوا من خلال بحوثهم ان الحياة بخصائصها العجيبة لا تحمل أي وجه شبه بخصائص المادة مطلقاً .

يقول احد العلماء المحدثين : (إن المادة لا تؤدي عملاً إلاَّ وفق ما ركب فيها من قانون ونظام. وليس لها قوة ابتكار. ولكن للحياة قوة ابتكار ، إذ أنها في كل لحظة تكشف عن اشياء جديدة وموجودات بديعة) .

فالحياة هي الحاكمة على المادة وقاهرة لها ، وليست محكومة أو تابعة لخصائص المادة .

يقول العالم المذكور ايضاً : (ان الحياة في صورها العديدة ، في الخلية الواحدة ، حتى في الحشرات ، والأسماك ، والثدييات ، والطيور ، والانسان ، وبأية صورة أخرى، فانها تهيمن على عناصر الطبيعة ، وتخرجها من تركيبها الأصلي وتحولها الى تراكيب جديدة) .

ويؤكد العلماء المعاصرون عموماً انه إذا كان جوهر الحياة من حيث الشكل تابعاً لظروف المادة ، فانه من جهات عديدة اخرى يسيطر على المادة ويحكمها . انه ليس تابعاً كلياً للمادة ولا خاصية من خواصها . إن للحياة تجلياتها الخاصة التي تفتقر اليها المادة اصلاً . فما إن تبدأ الحياة بالظهور حتى تظهر تحركات وتطورات لم تكن موجودة من قبل ، تظهر الخطط ، ويظهر التنظيم الهندسي ، وتتحدد مظاهر الجمال ، ويظهر الشعور والادراك ، ويظهر الشوق والرغبة والعشق ويظهر التدبير والتخطيط ، وتظهر اشياء لم تكن موجودة في المادة الميتة . إن العالم كله مرآة جم ال الباري وكماله ، وحتى تلك المادة التي لا روح فيها ، مجرد وجودها مرآة تعكس قدرة الحق الأبدية .

ان العوالم مرآة لنا تطالعنا
فشاهدوا وجهه في كل مرآة

وبقدر ما تكون الحياة اكمل من المادة ، فان شهادتها وحكايتها عن الخالق العليم الحكيم أكثر وأبلغ .

نظام الوجود وسننه :

إن النقطة التي اريد تكرار ذكرها ، هي أن القرآن أيضاً يستدل بهذا النظام الثابت الجاري على الحياة والممات ويستشهد به . انه لا يترك هذه السنة الثابتة الجارية جانباً ليستشهد بحوادث غريبة نادرة الوقوع . بل ان هذا النظام

الثابت ، السنة السنوية لبعث الحياة في الأرض ، النظام الثابت لظهور الجنين في النطفة وتكامله ، كل هذه تخلّقات جديدة تحدث في كل لحظة ، كل هذه افاضات تصل من الغيب آناً فآناً ، فما حاجتنا للذهاب بعيداً ، بل علينا ان نتفكر في كنه هذا التخلق ونتعمق فيه حتى نرى الله في مظاهره الخلّاقة الدائمة وايجاده الاكتمال الدائم .

يقول تعالى في سورة المؤمنون :

﴿ وَلَقَد خَلَقنا الانسانَ مِن سلاَلَةٍ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جعَلْناه نُطْفةً في قَرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقنا النُطْفَة عَلَقة ، فَخلقنا العَلَقةَ مُضْغةً ، فَخَلَقنا المُضْغة عِظاماً ، فكَسَوْنا العِظام لحمَاً ، ثُمَّ أنشأناهُ خَلْقاً آخرَ فتَبَارك اللَّهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ .

وعليه ، فالقرآن نفسه يستشهد بهذا النظام الثابت المتطور ، هذا النظام المألوف الطبيعي . انه نظام الخلق والايجاد والتكوين . نظام لو تعمقنا فيه لأوصلنا الى افق من المعرفة أرفع من أفق المادة . أي أن القرآن يتخذ من معلومات الانسان الثابتة واسطة لتعريفه بالله ، وهي معلومات ايجابية ، لا سلبية . وهذا ما ينبغي توضيحه حتى تتبين أهمية التوجيهات القرآنية بهذا الشأن تبيناً كاملاً .

البحث عن الله في المعلومات لا في المجهولات:

بعض الناس اعتاد على البحث عن الله في مجهولاته ، أي أنه كلما صادف لغزاً لم يستطع حله ارجعه الى ما وراء الطبيعة وعالم الغيب .

إذا سألت احدهم : كيف حصل هذا الخبز الذي تأكله ؟ لقال :

- كان دقيقاً عجنه الخباز وخبزه في التنور .
- كيف أصبح دقيقاً ؟
- كان حنطة فطحنوها في الطاحونة .
- وكيف وجدت الحنطة ؟
- زرعها الفلاح ، فنبتت ، فنمت ، فحصدها فدرسها .
- وكيف نبتت ؟
- نزل المطر ، واشرقت الشمس ، فاخضرَّت.
- كيف نزل المطر ؟
- هذا ما جاء به الله .

فكأنَّ الله لم يكن له حضور قبل هذه المرحلة ، وان تدخله اقتصر على هذه المرحلة فقط.

إن هذا الضرب من تصور الله خطأ مضل ، بل كفر وإلحاد . فالمرء في تصور كهذا يضع الله في مستوى احد مخلوقاته ويعتبره نداً له ، فيراه علة من بين العلل والأسباب في هذه الدنيا ، وهو الذي فوق كل علة وسبب ، وهو منبع كل العلل والأسباب . هو سبحانه العلة القصوى.

في مثل هذا التصور يبدو الأمر وكأن العمل قد قسم بين الله والأسباب المادية ، قسم يقوم به الله وقسم يقوم به غير الله ، كأن لا يكون لله يد في الأعمال الأخرى ، وانه لم يتدخل في سائر الأمور الأخرى كما تدخل في الاتيان بالسحاب وانزال المطر ، ولم يكن سوى سبب من جملة تلك الأسباب . أما إذا

قال ان تحرك السحاب ونزول المطر مثل الأسباب الأخرى، فانه لا يكون قد أبقى مكاناً لله .

طالما انه يرى اسباباً ظاهرية طبيعية لعمل الخبز ، وطحن الحنطة ، وبذر الحب ، وحرث الأرض ، ونزول المطر ، فلا يرى لله دخلاً في الموضوع ، وعندما لا يعود يلحظ سبباً ظاهراً طبيعياً ولا يعرفه ، يدخل الله في القضية ، أي أنه يأخذ بالبحث عن الله ضمن مجهولاته ، كما لو كان ما وراء الطبيعة مخزناً تصفّ فيه المجهولات كلها .

إن الله الذي يوضع في مصاف العلل المادية الطبيعية ليس حقيقة . فالله الذي يصفه القرآن ليس هكذا .

إن هذا الطراز من التفكير ، في المنطق القرآني ، شرك وكفر وإلحاد . ان الله الذي يصفه القرآن موجود في كل مكان ، حاضر مع كل شيء ، لا يخلو منه مكان ، ونسبته الى كل الموجودات والعلل والأسباب متساوية فجميع سلسلة العلل والأسباب قائمة بذات الله .

إن هذا الطراز من التفكير يتبعه الذين لا حظّ لهم من عمق التفكير ، حيث يفتشون عن الله بين المجهولات والأمور التي لا يعرفون لها علة ظاهرة . ولكن القرآن يأخذ بيدنا ويسير بنا خلال طريق الحياة والموت ونظام الوجود المتقن ، الطريق الذي فيه أفق الحياة أرفع من أفق المادة ، النور الذي يشع على جسد المادة الميتة ، الكمال الذي يفيض عليها ، الحقيقة التي تتقبلها المادة تقبلاً دون فاعلية وعطاء ، هنالك يقترب بنا القرآن الى افق الملكوت وباطن العالم .

فبموجب هذا البيان وطراز التفكير ، تكون الحياة حيثما وجدت ، وفي أية مادة حلت ، ووفق أي قانون أو ظروف ظهرت ، سواء أظهرت منذ البدء في خلق الساعة ، أم في ظروف التدرج التكاملي ، وسواء أكان ظهورها في حي عن حي ، أم أنها ظهرت تحت ظروف اخرى، وسواء أكان الانسان هو الذي هيّأ الظروف لها ـ فيما إذا استطاع الانسان في يوم ما ان يحقق ذلك ـ أم لم يكن ، ففي كل هذه الحالات وغيرها تكون الحياة فيضاً من نوره وعطائه . فالحياة نور يفيض على المادة ضمن توفر الظروف والاستعداد.

قضية بدء الحياة :

بما ان بعض الناس يريد دائماً العثور على الله في مجهولاته ، لا في معلوماته ـ وليس شيء أخطر من هذا المنحى في التفكير يتعامل به مع قضية التوحيد ، فان بعضاً آخر من غير المتثبتين الذين لا علم لهم يحاولون ، فيما يتعلق بالحياة ومعرفة الله ، البحث في مسألة بدء الحياة ، ويتساءلون عن كيفية ظهور الحياة على الأرض باديء ذي بدء . فمن جهة يقول العلم إن منشأ كل حي حي آخر ، إذ لم يتفق حتى الآن أن نشأ حي ، وان يكن خلية واحدة ، من مادة لا حياة فيها . ومن جهة أخرى يقول العلم ايضاً إنه مضى على ارضنا هذه زمان لم يكن فيها أي شيء حي ، وما كان يمكن أن يكون ، لأن درجة الحرارة قبل ملايين ملايين السنين لم تكن تسمح ، كما يقولون ، أن يبقى كائن حي حياً . ثم حتى بعد ذلك عندما برد سطح الأرض خلال ملايين السنين لم يكن هناك سوى المواد غير العضوية ، فكيف ظهرت الحياة إذن ؟ وكان هذا

مجهولاً آخر يضاف الى مجهولات الانسان . أما الذين يبحثون عن الله في مجهولاتهم ، فيقولـون : بما ان ذلـك غير ممكن بالطرق العادية المألوفة ، فان يد قدرة الله قد امتدت فـأوجدت الحياة للمرة الأولى على هذا الكوكب .

داروين والنفخة الالهية :

على الـرغم من ان داروين ، العالم الحيـاتي المعـروف وصاحب فلسفة النشوء والارتقاء ، كان شخصاً متـديناً يـدعي المسيحية ، فقد أساء الناس تفسير فلسفته ، واظهروه على انه ينكر وجود الخالق . انه عندما يسرد تسلسل نشوء الأحياء يصل الى حيث يقول إنه لم يكن على وجه الأرض سوى عدد قليل من الأحياء ، أو على الأقل نوع واحد من الأحياء لم يخرج من حي آخر . وهنا يقول : أما هذا النوع البـدائي فقد خلقـه الله بنفخة من عنده .

ما من شك في أن الحياة الأولى قد ظهرت بنفخة إلّهية ، مثـل جميع سلسلة الأحيـاء ، إلاَّ أن الأمر ليس كمـا ظن هذا الرجل في مقولته بأن النفخة الإلّهيـة قد اوجـدت الحي الأول فحسب ، وان البداية كانت من الله . أي أن وظيفة الله كانت الشروع بعملية الخلق ، ومن ثم اصبحت المادة قادرة بـذاتها على نقل الحياة الى الأجيال القادمة بقطع النظر عن الله . في حين ان بداية العمل ووسطه ونهايته لا تختلف ، فالحياة دائماً وفي كل الأحوال ، سواء في البداية أم خلال التكامل ، نفخة إلّهية . والكون كما هو محتاج في أصل وجوده اليه سبحانه فهو محتاج أيضاً في استمراره اليه تعالى .

في سورة السجدة آية تفيد، بأنه مثلما خلق آدم أبو البشر بنفخة إلٰهية ، فان جميع افراد البشر يخلقون بالافاضة الإلٰهية ذاتها التي اسمها النفخة في المنطق القرآني :

﴿ الَّذي أَحسَن كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وَبَدأ خلْقَ الانسان مِن طِينٍ ثُمَّ جعَلَ نَسْلَه من سُلالةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سوَّاه ونَفَخَ فيه من روحِهِ وجَعَلَ لكم السَّمعَ والأبصَارَ والأفئدَة قليلاً ما تَشْكُرُون ﴾ .

وفي آية أخرى من سورة الأعراف يقول : **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْناكُم ثُمَّ صَوَّرناكُمْ ثُمَّ قلنا للملائِكَةِ اسجُدُوا لآدَمَ ﴾** .

هنالك أيضاً آيات اخرى في القرآن يستدل منها على أن آدم ليس هو أول من خلق بالنفخة الإلٰهية .

قصة آدم في القرآن :

من العجيب أن قصة آدم أبي البشر قد وردت في القرآن على انها درس آخر ، لا على أنها دليل على التوحيد ولا لكون حياة البشرية الأولى قد بدأت هكذا ، فتعالوا واعترفوا بربوبية الله . إن القرآن الكريم يورد قصة خلق آدم بصورة خاصة نعرفها جميعاً بشكل أو بآخر . وإذا اعتبرنا علوم الحياة قد بلغت مرحلة متقدمة ، وان قوانين تسلسل الأنواع صحيحة ، فليس ثمة دليل يؤكد استحالة حدوث طفرة عظيمة بحيث تخلَّقت حفنة من التراب في مدة وجيزة واصبحت انساناً . أي أن المراحل التي كان ينبغي أن تطوى في قرون طويلة ، وان تتوالد الأجيال وتدخل ضمن ظروف مساعدة يمكن أن تتهيأ ظروف اخرى تعجل بالتطور . وليس في هذا ما يخالف السنن

الطبيعية السائدة في الكون . فالسرعة تتغير في الكون باختلاف الظروف والأحوال ، كما انه لا يوجد ما يمنع من تقليل تلك السرعة . فقد يمكن في ظروف خاصة ان نزيد من طول فترة الطفولة والشباب والكهولة فترات طويلة .

على كل حال ، كان القصد توضيح اسلوب القرآن في انه في مسألة التوحيد لا يتمسك بموضوع بدء الحياة ، ولا يقول انه بما ان للحياة بداية ، سواء بدأت في خلية عضوية واحدة أو من كائن عمره ملايين السنين ، فتجب لذلك معرفة الله . ان قصة آدم ابي البشر قد وردت بقصد آخر ، وقلما نجد قصة مثل قصة آدم ذات مغزى كبير . لقد وردت هذه القصة لإعلاء شأن الانسان ، وان الانسان إذا تعلم الأسماء الإلٓهية يكون اعلى مرتبة من الملائكة ، وان الملائكة تخضع وتسجد تكريماً له ، وكذلك للتحذير من عداوة الشيطان ، ولتنبيه البشر الى ما توسوسه لهم اهواؤهم الداخلية لكيلا تنحرف بهم عن طريق الصواب . والقصة تكشف عن عاقبة التكبر ، ذلك التكبر الذي هوى بالشيطان من ساحة قرب الله ، وعن اخطار الطمع والسقوط التي تحيق بالانسان فتنزله درجات بسبب تهاونه في اطاعة اوامر الله ، وعن المقام الرفيع الذي يتسنمه الانسان ، مقام خلافة الله .

إن القصة مجموعة من الدروس الأخلاقية والتعليمات العرفانية :

﴿ وَإِذ قال رَبُّك للملائِكَة إنّي جاعِلٌ في الأرض خليفةً قالوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويَسْفِك الدِّماءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ

بِحَمْدِكَ ونُقَدِّس لَكَ قال إنِّي أَعْلَمُ مَـا لا تَعْلَمون . وعَلَّم آدَمَ الأسماء كُلَّها ثُمَّ عرضَهُم على الملائكة فقال أنبئوني بأسْماءِ هؤلاء إن كُنْتُم صادِقِين قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنا إلَّا ما عَلَّمتنا إنَّك أنت العلِيمُ الحَكِيمُ . قال يَا آدمُ أنبِئْهم بأسمائِهِم فَلَمَّا أنبأهُمْ بأسمائِهِمْ قَالَ ألَمْ أقُلْ لكمْ إنّي أعلم غيب السّموات والأرضِ وأعلم ما تُبدونَ وَما كُنْتُم تَكْتُمُون ﴾ .

إن في هذه القصة مغازي أخرى كثيرة ، لا مجال لشرحها هنا . إلَّا أن ما لم يرد في هذه الآية والآيات الأخرى الخاصة بقصة آدم هو اعتبار خلق آدم دليلاً على التوحيد.

٢٠

الدعـــاء

الروح المعنوية في الدعاء :

بصرف النظر عن الثواب المترتب على الدعاء ، وبصرف النظر عن آثار استجابة الدعاء ، فان الدعـاء إذا لم يكن مجرد لقلقـة لسان ، وإذا انضم القلب الى اللسـان فيه بـانسجـام ، واهتزت روح الانسان عند الدعاء ، فستـكون فيه معنوية روحية عالية ، كما لو ألقى المـرء نفسه في لجـة نور سـاطع فيحس عندئذٍ بغلاء جوهر الانسانية ، وعندئذٍ يدرك جيـداً ان الأشياء الصغيرة التي كانت في سائر الأوقات تشغله وتستأثر باهتمامه ، كم هي تافهة وحقيرة وزهيدة . عندما يمد الانسان يـد السؤال لغيـر الله ، يحس بالمـذلة والهـوان ، ولكنه إذا طلب من الله احس بالعزة . لذلك فالدعاء طلب ومطلوب ، وسيلة وغاية ، مقـدمـة ونتيجـة . لم يحب أوليـاء الله شيئـاً اكثـر من حبهم الدعاء ، فكانوا يعرضون كل طلباتهم وأمانيهم على محبوبهم الحقيقي ، وهم يولون طلباتهم من الأهمية بالقدر الذي يولونه لنجواهم مع الله ، دون أن يحسوا بتعب ولا نصب ، وقد عبر

عن ذلك امير المؤمنين علي (ع) في خطابه لكميل النخعي :

« هَجَم بِهِمُ العِلم على حقيقة البصيرة وباشَرُوا روحَ اليَقين ، استلانُوا ما استوعره المُتْرفون ، وأنسوا بما استَوْحَش مِنْهُ الجاهلُون وَصَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحها مُعلَّقةٌ بالمحلّ الأعلى » بخلاف القلوب الصدئة المسودّة المغلقة المطرودة من رحاب الله .

طريق من القلب الى الله:

إن لكل امرىء طريقاً من قلبه الى الله ، فثمة باب في كل القلوب يفتح عليه سبحانه . فحتى اشقى الأشقياء نجده عند الابتلاء وعندما تتقطع به الأسباب ، تنتابه هزة ويلجأ الى الله . وهذا أمر اصيل في فطرة الانسان وطبيعي في وجوده ، إلاَّ ان حُجُبَ الاثم والشقاء قد تغطيه احياناً ، ولكن المصائب تزيحه فتتحرك هذه الفطرة وتبرز للعيان.

سأل شخص الامام الصادق (ع): ما الدليل على وجود الله ؟ فسأله الامام ان كان قد ركب البحر ، فقال : نعم . فسأله ان كان قد صادف طوفاناً وهيجاناً في البحر ، وانه كان على وشك الغرق ، وانه قد قطع رجاءه من كل شيء . فقال : نعم . فقال : هل اتجه قلبك في تلك اللحظة الى جهة ما ، الى ملجأ يحميك ، الى نقطة تتوسل اليها كي تنجيك من محنتك ؟ فقال : نعم . فقال : ذاك هو الله .

لقد جعل الامام الصادق (ع) الرجل يعرف الله عن طريق قلبه ﴿ وَفي أنفُسِكُم أفلا تُبْصِرُون ﴾ . إن هذا الاتجاه الفطري ، الذي يتجلى عند تقطّع الأسباب ، ويتوجه الى

القدرة القاهرة الغالبة على الأسباب والعلل الظاهرة ، هو الدليل على وجود تلك القدرة . ولولا وجودها لما وجدت تلك الفطرة في الانسان .

هناك ، بالطبع ، فرق بين ان تكون في الانسان غريزة من الغرائز ، وان تكون هناك غريزة يعرفها الانسان حق المعرفة ويعرف هدفها . ان غريزة مص اللبن عند الطفل موجودة فيه منذ ولادته ، فإذا جاع تحركت فيه هذه الغريزة وهدته الى البحث عن الثدي الذي لم يره ولم يعرفه ولم يعتد عليه . ان هذه الغريزة هي التي ترشده ، انها هادية بذاتها ، وهي التي تحمل الطفل على فتح فمه بحثاً عن الثدي ، وعلى البكاء إن لم يعثر عليه . إن البكاء نفسه دعوة للأم لتقديم عونها لوليدها ، تلك الأم التي ما يزال الطفل لا يعرفها ولا علم له بوجودها . والطفل نفسه لا يعلم شيئاً عن هدف هذه الغريزة ، ولا عن القصد من بكائه ، ولا لماذا أوجدت فيه هذه الغريزة . إنه لا يدري ان له جهازاً هاضماً وان ذلك الجهاز يحتاج الى غذاء ، والجسم يحتاج الى استبدال ما يتلف من انسجته . انه لا يدري لماذا يريد ، ولا يدري ان فلسفة بكائه هي جلب انتباه الأم التي لا يعرفها ، ولكنه سيعرفها تدريجياً .

أما بالنسبة لغرائزنا البشرية العليا ، كغريزة الحاجة الى الله والبحث عنه ، وغريزة الدعاء والالتجاء الى إلّه غير مرئي بالحواس ، فاننا في ذلك اشبه بذاك الطفل الوليد بالنسبة الى ثدي امه الذي لم يره ولا يعرفه : ﴿ **إنّا لِلّهِ وإنّا إليه راجِعُون** ﴾ ، ﴿ **وَإلىٰ اللّهِ تَصِيرُ الأمورُ** ﴾ .

لا شك انه لولا وجود ثدي ولبن يناسبان معدة الطفل ، لما ارشدته الغريزة اليهما . إن هناك ارتباطاً بين تلك الغريزة وذلك الغذاء الموجود . كذلك هي الغرائز الأخرى في الانسان . إذ ما من غريزة وجدت عبثاً في الانسان ، فكل الغرائز موجودة لوجود الحاجة اليها ولسدّ تلك الحاجة .

الانقطاع الاضطراري والاختياري:

هناك حالتان يدعو الانسان الله فيهما :

- **الأولى**: عندما يُبتلى بالمصائب والمحن وتوصد في وجهه الأبواب وتنقطع به العلل والأسباب . نراه يتوجه تلقائياً وغريزياً إلى الله يتوسل به ليرفع عنه محنه ومصائبه . وهذا النوع من التوجه نحو الله لا يعتبر كمالاً انسانياً .

- **والثانية** : عندما يكون في حالة رخاء حال واطمئنان بال ، ولكنه يعلم بأن ما هو فيه من نعمة مزجاة فمن الله ، وانه هو القادر على ان يسلبه إياها كما هو القادر على أن يزيده منها ، وذلك لعلمه بأنه خالق الكون والانسان ، والحياة ، وانه اللطيف بعباده الرؤوف به ، وانه صاحب الأسماء الحسنىٰ ، ولذا نجد هذا المخلوق الواعي حتى وهو في رخائه وبحبوحة عيشه يتوجه الى ربه بنفس متسامية مشرقة داعياً اياه متوسلاً به ليديم عليه نعمته ويزيده من فضله ، ويبعده عن معصيته ليبعد غضبه سبحانه عنه ، ويقرّبه من طاعته ليؤدي حق شكره ، ولا اشكال في أن هذا النوع من التسامي النفسي والانفتاح الروحي يعتبر كمالاً انسانياً وان الله سبحانه يستجيب لمثل هذا المخلوق وينظر اليه بعين رحمته في حالة رخائه كما يسرع الى

نجدته ورفع البلاء عنه في حالة محنته وابتلائه كما يسرع هو الى استدعاء رحمة ربه .

شروط الدعاء :

إن للدعاء شروطاً ، وأول تلك الشروط هو أن يحصل في الانسان طلب حقيقي بحيث تتحول جميع ذوات الوجود الانساني الى مظهر من مظاهر ارادة الطلب ، وان يبدو ما يريده الانسان في صورة حقيقية من صور الاحتياج والدعاء ، كما اذا احتاج جزء من الجسم الى شيء تأخذ جميع اجزاء الجسم الأخرى بالمشاركة ، بل ان بعض الأعضاء قد ينخفض نشاطه لكي ترتفع الحاجة عن نقطة من نقاط الجسم . فلو غلب العطش ، مثلاً على احد الأشخاص ، فان اثر العطش يظهر على وجنتيه ، ويصرخ الحلق والكبد والمعدة والشفاه واللسان : ماء ! وإذا نام فانه سيرى الماء في منامه ، لأن جسمه بحاجة الى الماء حقاً . ان حاجة الانسان الروحية ، وهو جزء من عالم الخليقة ، لا تختلف بالنسبة لكل العالم عن ذاك . ان روح الانسان جزء من عالم الوجود ، فإذا حصل لها في الواقع طلب او احتياج ، فان جهاز الخليقة العظيم لا يهمل طلبها .

هناك اختلاف كبير بين مجرد (قراءة) الدعاء ، والدعاء الحقيقي . وما لم يتحد قلب الانسان مع لسانه في انسجام تام لن يكون الدعاء دعاء حقيقياً . إذ لا بدَّ من حصول الطلب والحاجة حقاً في قلب الانسان ووجوده : « أَمْ مَن يُجيب المُضْطرَّ إذا دعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ » .

الاعتقاد الجازم برحمانية الله ولطفه :

الشـرط الآخر من شـروط الدعـاء هو الايمـان واليقين . الايمان برحمة الله اللامتناهية . الايمان بأنـه سبحانـه لا يمنع احـداً من فيض نعمته . الايمـان بأن بـاب رحمة الله لا يغلق ابداً ، وما التقصير والقصور إلاَّ من العبد نفسه . لقد جاء في الحديث: « إذا دَعَوت فظُنَّ حاجَتَـكَ بالبـابِ » . كان الامـام علي بن الحسين زين العابدين (ع) يدعو ربه ، كما في دعـاء ابي حمزة الذي يعج بالأمل والاطمئنان في أسحار شهر رمضان المبارك ، بهذا الدعاء:

« اللهمَّ إنِّي أجدُ سُبل المطالِب اليكَ مُشْـرعةً ، ومَنـاهِلَ الرَّجاء لدَيك مُترعةً ، والاستعانةَ بفضلِك لِمَن أمَّلَكَ مُبـاحةً ، وأبوابَ الدعاء إليك للصَّارخين مفتُوحةً . واعلَمُ أنَّك للراجينَ بِمَوْضع أجابةٍ ، وللملهـوفين بمَرْصَـدِ إغاثَـةٍ ، وأنَّ في اللهْفِ إلى جُودِكَ والرِّضا بِقَضائكَ عِوَضاً عن منعِ الباخِلين ومَنْدُوحَـةً عمَّا في أيدي المستَأْثرينَ وأنَّ الرَّاحِلَ إليكَ قَريبُ المسـافةِ ، وَأنَّكَ لا تَحْتَجبُ عن خَلْقِكَ إلاَّ أن تحجِبَهُمُ الآمالُ دُونَكَ » .

لا خلاف مع سنن التكوين والتشريع:

والشرط الآخر من شروط الدعاء هو ألاَّ يكون مخالفاً لنظام التكـوين أو التشريـع . إن الدعـاء طلب العون للوصـول الى أهداف اقرتها للانسان الخليقة والتكوين أو الشرائـع الإلَهية . وإذ كان الدعاء على هذه الصورة ، كان حـاجة طبيعيـة ، فلا يبخل جهاز الخليقـة ، بحكم تعادلـه وتوازنـه ، على الداعي بالعون حيثما وجدت حـاجة لـذلك . امـا طلب شيء يخالف

أهداف التكوين أو التشريع ، كأن تطلب الخلود في الدنيا ، أو العقم ، فليس من الدعوات المستجابة أي أن امثال هذه الدعوات لا تكون مصداقاً حقيقياً للدعاء.

الانسجام في سائر شؤون الداعي :

ومن الشروط الأخرى ان تكون سائر اعمال الداعي في الحياة منسجمة مع الدعاء ، أي أن تكون تلك الأعمال منسجمة مع أهداف التكوين والتشريع ، ان يكون القلب نقياً نظيفاً ، ان يكون ارتزاقه من الحلال ، ألَّا يكون ظالماً لأحد. لقد جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) : « إنْ أرادَ أحدُكم أن يُسْتجابَ لَهُ فَلْيطُبْ كَسْبُهُ ، وليخرُج من مَظالِم النَّاسِ وإن الله لا يرفعُ إليه دُعاءَ عبدٍ وفي بَطْنِهِ حرَامٌ أو عِنْدَهُ مَظْلمةٌ لأحدٍ من خَلْقِه».

الدعاء للخلاص من بلاء تسبّب عن ترك واجب الهي مع اصرار الداعي على تركه:

وشرط آخر هو أن لا تكون حالته التي يريد تغييرها الى خير حالاً ناتجة عن ارتكابه اثماً أو تقصيراً في واجباته ، أو بعبارة أخرى، لا تكون تلك الحالة التي يريد تغييرها عقوبة ونتيجة منطقية لآثامه ومخالفاته ، إذ في هذه الحالة لا يمكن ان تتغير حاله ما لم يتب عما ارتكب ، وما لم يُزِل اسباب حصول تلك الحالة وعللها.

من ذلك مثلاً ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، فصلاح المجتمع وفساده منوطان بالقيام بهذين الفرضين أو بعدم القيام بهما . فالنتيجة المنطقية لترك هذين

القرصين هي أن تتاح الفرصة للأشرار ليتسلطوا على مقدرات الناس.

فإذا قصر الناس في تنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحاق بهم نتيجة ذلك ما يستحقونه من بلاء، ثم جاءوا يدعون الله ان يرفع عنهم ذلك البلاء ، فلا يتحقق لهم شيء بالطبع ، وطريق نجاتهم الوحيد هو التوبة عما مضى ، والعودة بقدر الامكان الى القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي هذه الحالة يمكن ان تعود اليهم حالتهم الطبيعية بالتدريج .

﴿ **إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بِقومٍ حَتّى يغَيِّروا ما بِأنفسهم** ﴾ وفي الحديث: « لتَأمُرنَّ بالمعروفِ ولتَنهونَّ عن المنكرِ أو ليُسلِّطنَّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستَجابُ لهُمْ » فالحقيقة هي ان هذه الدعوات خلاف سنن التكوين والتشريع .

كذلك أمر من لا يعمل ولكنه لا يفتأ يرفع يديه بالدعاء ، فهذا ايضاً مخالف لسنن التكوين والتشريع يقول الامام علي (ع): « الدَّاعي بِلا عَمَلٍ كالرامي بلا وَتَرٍ » أي ان العمل والدعاء يكمل بعضهما بعضاً فالدعاء بلا عملٍ أمر لا تأثير له ولا أثر.

الدعاء لا يقوم مقام العمل :

من الشروط الأخرى للدعاء هو أن يكون مظهراً من مظاهر الحاجة حقاً ، وان يدعو الطالب عندما لا يكون المطلوب ميسوراً له أو في متناول يده ، أو يكون عاجزاً ضعيفاً . أما إذا اعطى الله مفتاح الحاجة بيد الانسان نفسه فيكفر بالنعمة

ويستصعب استعمال المفتاح ، ثم يدعو الله أن يفتح له الباب الذي يحتفظ هو بمفتاحه لكيلا يتحمل عناء استخدام المفتاح ، لا شك ان دعاء هكذا إنسان لا يستجاب.

هذا النوع من الدعوات ينبغي اعتباره من تلك التي تخالف سنن التكوين . يكون الدعاء من أجل الحصول على القدرة ، أما الدعاء طلباً للقدرة الموجودة فعلاً عند الداعي فانه يكون من قبيل تحصيل الحاصل . لذلك يقول أئمتنا (ع) : « أربعة لا تستجاب لهم دعوة : رجل جالس في بيته يقول : اللهم ارزقني ، فيقال له: الم آمرك بالطلب ؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها فيقال له : ألم اجعل امرها اليك ؟ ورجل كان له مال فأفسده ، فيقول : اللهم إرزقني ، فيقال له : ألم آمرك بالاقتصاد ؟ ألم آمرك بالاصلاح ؟ ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة ، فيقال له : ألم آمرك بالشهادة ؟ ». وفي بعض الروايات ورد زيادة على ذلك : ورجل يدعو على جاره وقد جعل الله عز وجل له السبيل الى ان يتحول عن جواره ويبيع داره.

من البديهي أن الأمر ليس مقتصراً على هذه الأمثلة الخمسة التي سبق ذكرها ، وانما هي أمثلة للحالات التي يكون الانسان نفسه قادراً على حل مشكلته بالعمل والتدبر ، ولكنه يقصر عن ذلك ويحاول أن يقيم الدعاء مقام العمل . كلا ، ليس الأمر هكذا ، ان الدعاء في نظام الخليقة لا يقوم مقام العمل بل انه مكمل للعمل ومتمم له .

الدعاء والقضاء والقدر :

هناك بحوث كثيرة ، كُتِبَتْ قديماً وحديثاً ، حول الدعاء ،

وهناك تساؤلات ايضاً ، منها ان الدعاء يتنافى مع الاعتقاد بالقضاء والقدر ، فاذا قبلنا بان كل شيء يحصل بالقضاء الإلّهي ، فماذا يكون اثر الدعاء ؟

الدعاء والحكمة البالغة :

أما ان يكون الدعاء منافياً للقول بحكمة الباريء وانه يفعل ما يفعل بموجب المصلحة ، أو ان ما نريد تغييره بالدعاء موافق للحكمة والمصلحة أو مخالف لهما ، فإذا كان الموجود موافقاً للحكمة ، فلا ينبغي لنا أن نطلب من الله ما يخالف الحكمة ، ولا الله يستجيب لمثل هذا الدعاء . وإذا كان مخالفاً للحكمة فكيف يمكن قبول القول بأن نظام العالم يجري على وفق مشيئة الله الحكيمة ، ثم نطلب من الله وقوع أمر مخالف للمصلحة والحكمة ؟ .

الدعاء والتسليم :

أو يقال إن الدعاء يتنافى مع الرضا بقضاء الله والتسليم لمشيئته والانسان ينبغي له أن يرضى ويقنع بما يصل من الله .

هذه أسئلة واعتراضات مطروحة منذ القِدم ، حتى انها تؤلف جزء من أدبنا ، وليس هنا مجال بحثها . إن جميع هذه التساؤلات ناشئة عن ظنهم ان الدعاء أمر خارج عن نطاق قضاء الله وقدره ، وبعيد عن حكمته ، مع أن الدعاء والاستجابة له من اجزاء القضاء والقدر ، وقد يقف الدعاء في طريق بعض موارد القضاء والقدر ولهذا فانه ليس منافياً للرضاء بالقضاء، ولا مع الحكمة الإلّهية . وليس ثمة مجال أوسع الآن لبحث ذلك .

ليالي القـدر:

﴿ وَإذا سأَلَكَ عِبادِي عَنّي فإنّي قرِيبٌ أجيبُ دَعْوةَ الدَّاعِ إذا دَعانِ فَلْيستَجِيبُوا لي ولْيُؤمِنوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدون ﴾ . هذه الآية ترد في سياق آيات خـاصة بشهـر رمضان المبـارك ، أي الآيات الخاصة بالصوم ، ولعل سبب ورودها بين تلك الآيات هو أن هذا الشهر يتميز بكونه شهر العبادة والدعاء والاستغفـار بشكل يزيد على بقية شهور السنة . حيث وردت في قيام لياليه بين يدي الله سبحانه روايات كثيـرة تحث على ذلك وبخـاصة ليالي القدر ، التي اختص سبحانه هذا الشهر بها ، ولذا كـان ائمتنـا عليهم السلام يهتمـون بالقيـام فيها واحيـائهـا بـالعبـادة والاستغفار .

عندما كان يحل الثلث الأخير من شهر رمضان كان النبي الكريم (ص) يأمر بألّا يفرش له فراش نومه حتى آخر الشهر ، إذ كان يعتكف في المسجد وينشغل بالدعاء ومناجاة الخالق . علي بن الحسين (ع) لم يكن ينام في ليالي شهر رمضان ، بل كان يقضيها إما بالصلاة والدعـاء ، وإما بـايصال المعـونة الى الفقراء والمستضعفين . وكان يقرأ عند السحر الدعاء المعروف باسم دعاء أبي حمزة الثمالي .

لذة الدعاء والانقطاع الى الله:

إن الذين ذاقوا لذة الدعاء والانقطاع عن الناس الى الله لا يرون لذة تعدل تلك اللذة . فالدعاء قد يبلغ أوْجَه في التـوجه فيشعر الداعي بنوع من التصعيد الروحي والتسامي الـوجداني مما يمنحه لـذة ما بعـدها لـذة ، وتخالجـه سعادة ليس فـوقها

سعادة ، عندما يشعر أنه موضع لطف الله الخاص ، ويشاهد آثار استجابته لدعائه : « وَأَنِلْنِي حُسْنَ النَّظَرِ في ما شَكَوتُ وأَذِقني حَلَاوةَ الصُّنع في ما سَأَلْتُ » .

يقول العارفون إن هناك اختلافاً بين (علم اليقين) و (عين اليقين) و (حق اليقين) ويضربون لذلك مثلاً ، فيقولون : افترض ان ناراً تشتعل في مكان ما . فمرة انت ترى أثر تلك النار ، دخانها المتصاعد مثلاً ، فتعلم ان هناك ناراً في مكان تصاعد الدخان ، فهذا (علم اليقين) وقد ترى النار نفسها عن قرب ، فهذا (عين اليقين) وهو أعلى مرتبة من العلم به ، لأنه مرئي محسوس . وقد تقترب اكثر من النار بحيث ان حرارتها تلفح جسمك وأنت تدخل فيها ، فهذا (حق اليقين) .

من الممكن أن يعرف الانسان الله معرفة كاملة ، ويؤمن بوجوده القدسي ، ولكنه في حياته الخاصة قد لا يرى أثراً لألطاف الله وعناياته الخاصة التي يفيض بها احياناً على بعض عباده . فهذه هي مرحلة علم اليقين . واحياناً يشاهد اثر التوحيد ، يدعو فيجد لدعائه استجابة ، يتوكل على الله في أعماله ولا يعتمد على غير الله ، فيجد اثر هذا التوكل والاعتماد في حياته الخاصة . فهذه مرحلة عين اليقين . أما عباد الله الذين يحسون باللذة فهم أهل القلب النيّر السليم وأهل التوكل والاعتماد على الله ، ويرون آثار دعائهم وتوكلهم واعتمادهم ، يمتلئون فرحاً وابتهاجاً الى الحد الذي لا يسعنا تصوره تصوراً كاملاً . اما المرحلة العليا فهي التي يرى الداعي فيها نفسه في ارتباط مباشر مع الله تعالى ، بل لا يرى نفسه ، انما يرى الفعل

فعله ، والصفة صفته ، وفي كل شيء يراه هو وحده سبحانه .

عندما يتعلم الانسان فناً من الفنون أو علماً من العلوم ، انما يكون ذلك بالدرس ، فيصبح طبيباً أو مهندساً ، وبعد سنوات من التعب ، وبذل الجهد ، عندما يشاهد لأول مرة أثر فنه أو علمه، كأن يرى مريضه قد شفي ، أو يرى عمارة وقد ارتفعت برسومه مهيبة شامخة ، يستغرقه الابتهاج والسرور ، ويرى في نفسه العزة والكرامة . ان اعظم اللذائذ هو أن يرى الانسان آثار فنه وعلمه .

فما حال الانسان إن رأى اثر فن ايمانه ، اعني لطف الله الذي يختصه به . ان العزة التي تصيب الانسان عن طريق التوحيد ، والبهجة والسرور اللذين يحس بهما في تلك الحال اكثر من ذلك آلاف المرات ، وألذ آلاف المرات ، وأحلى آلاف المرات . اسأل الله أن يوفقنا الى أن ندعوه ونناجيه لننعم بتلك الحالة الروحية المقدسة .

ـ ٣ ـ
مسائل دينية

ثمة اسئلة دينية يجب طرحها ويكون الجواب عليها واجباً ايضاً ، وثمة اسئلة ، على الرغم من كونها دينية ، إلاّ أن طرحها حرام ، ويجري مجراها اضاعة الوقت في الاجابة عليها ، إذ أن الواجب الديني يقتضي السكوت عن الجواب وإهمال السؤال وترك تلك المواضيع . لقد ورد في القرآن بشكل صريح في بعض الآيات ان علينا ان نسأل عما لا نعلم من الذين يعلمون : ﴿ **فَاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْر إنْ كُنتُم لا تَعْلَمونَ** ﴾ .

وفي بعض آخر من الآيات نهي عن بعض الأسئلة وان كانت ذات صبغة دينية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تَسْأَلُوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكُم تَسُؤكُمْ وإن تَسألوا عنها حِينَ يُنزَّلُ القرآنُ تُبْد لَكم عَفَا اللَّهُ عَنْهَا واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قد سَأَلَها قومٌ مِنْ قَبْلِكم ثُمَّ أَصْبحُوا بِهَا كافِرِين** ﴾ وسوف نعود الى شرح هاتين الآيتين فيما بعد .

غريزة السؤال :

غريزة السؤال من الغرائز الطبيعية عند البشر ، وهي دليل على نمو جهازهم الفكري وتطوره . تحصل حالة التساؤل عند المرء عندما يبدأ ذهنه بالشك في امر من الأمور ، وهذا الشك نفسه دليل على ارتفاع المستوى العقلي لديه . ان الحيوان لا ينتابه الشك ، ليس من حيث وصوله الى مرحلة أعلى من الشك ، أي مرحلة اليقين ، بل من حيث كونه في مرحلة ما دون الشك . كثير من الناس هم في مرحلة ما دون الشك ، لا فوقه . يبدأ الطفل وهو في الثالثة أو حتى قبل ذلك بالسؤال من ابويه أو من مربيته عما حوله مما يلفت انتباهه ، وهو يلح في السؤال ولا يتعب من ترديد: ما هذا ؟ ما ذاك ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ لقد حدد علماء النفس السن التي يبدأ فيها الطفل بالتساؤل السنة الثالثة من العمر . واصطلحوا عليها بسنة التساؤل .

من القضايا التربوية كيفية تناول الأبوين والمربين هذه الفترة عند الطفل من البديهي انه ينبغي عدم الوقوف في وجه هذه الغريزة أو كبحها ، كما لا يستسيغون استعمال اسلوب الكذب في الجواب ، بل يجب قول الصدق في حدود فهمهم وهذا ينطبق على اجوبة اسئلة الأطفال الأكبر سناً ايضاً ، فهم ايضاً تجب معاملتهم باللطف ، والحسنى ، والفرق الوحيد هو امكان نهي كبار السن عن طرح بعض الأسئلة ، بخلاف الحال مع الأطفال .

وقد يطرح سؤال هو مزيج من الجهل والعلم ، من عدم

المعرفة والمعرفة ، أي أن مجهولاً يكشف عن نفسه امام الانسان الذي لا يعرف هذا المجهول من جهة ، ولكنه يدرك وجوده ، أي أنه مدرك لجهله ، ولذلك فهو يسأل ، إذ لو كان ذلك المجهول معلوماً عنده لما سأل ، كما انه إذا كان فعلاً يجهل وجود ذلك المجهول ، أي هو لا يدري انه يجهل شيئاً ما ، إذن لماذا تصدى للبحث والاستقصاء والتحقيق . وعليه ، فان الانسان لا ينبري للبحث والسؤال والاستقصاء إلّا إذا علم أن هناك مجهولاً ينبغي عليه أن يعرفه . أي عندما يعلم انه لا يعلم . ولذلك قال المفكرون إن من اكبر ما يميز الانسان عن الحيوان هو ان جهله جهل بسيط ، أي أنه يستطيع أن يعلم انه لا يعلم ، ومن ثم يعمل على ازالة جهله بالسؤال والبحث ، بخلاف الحيوانات التي يعتبر جهلها جهلاً مركباً ، أي انها لا تعلم وتجهل انها لا تعلم ، ولذلك فهي لا تسأل ولا تبحث وليس في امكانها ان تفعل .

السؤال مفتاح العلم :

جاء في كتب الحديث عن الامام الباقر (ع) أنه قال : « ألا إنَّ مِفْتاح العِلم السُّؤال » ثم أنشد:

شِفـاءُ الـعَـمَـىٰ طُـول الـسُّـؤال وإنّـمـا
تَمـامُ العَمَى طُولُ السُّكُـوت علَىٰ الجهْلِ

إن واجب المحقق هو البحث والتحقيق ، وواجب المبتدىء والتلميذ هو ان يسأل عما يشكل عليه من المحقق . فالطالب إذا واجه مسائل تتطلب الحل لا مندوحة له عن الالتجاء الى استاذه ومعلمه ليسترشد به . والمريض لا بدَّ له

من استشارة الطبيب في مرضه.

عـم السؤال ؟:

لا بدَّ من القول بان السؤال ، وان يكن حسناً ودليلاً على الرشد العقلي عند الانسان وكماله ، إلاَّ أنه مقدمة لشيء آخر ، فهـو إما مقـدمة للتحقيق ومـزيد من البحث ، أو انـه مقـدمـة للعمل . فثمة اشخاص ينبرون للتحقيق في موضوع علمي أو تاريخي أو ديني ، لا يجدون بـداً من ان يحملوا اسئلتهم الى من لهم اطلاع أوسع في الموضوع الذي يحققون فيـه ، ومن هذا القبيل الأسئلة التي يطرحها الطالب على استاذه . واحياناً اخرى يكون الدافع الى السؤال هو أن السائل يريد معرفة طريقة القيام بعمل ما ، كالأسئلة التي يطرحها المريض على الطبيب لمعرفة ما ينبغي عليه أن يعمل في مرضـه . كذلـك الأمر مـع المصـابين بالأمـراض النفسية وعـلاقتهم بأطبـائهم والقـائمين بشؤونهم .

إذا لم يكن السؤال مقـدمــة لتحقيق علمي ولا لانجــاز عملي ، فان مجرد جهل شيء ما لا يجيـز للانسـان أن يضيع وقته ووقت الآخرين بالسؤال عنه ، وذلك لأن ما يجهله الانسان لا نهاية له . وعلى حد قول احد العلماء ، ان الانسان منذ نموه وتمييزه يجد نفسه محاطاً بدائـرة من علامـات الاستفهام التي يتزايد عددها يوماً بعـد يوم ، وإذا وفق للحصـول على جواب واحدة منها ، برزت أمامه عشر أخرى . ان السبب الذي يحمل العلماء الحقيقيين والذين تنسموا هواء المعرفة على الاعتراف بأنهم جهلاء لا يعلمون شيئاً ، هو انهم كلما عرفوا عـدداً من المجهـولات ، تبـدت أمـامهم اعـداداً اكبـر من المجهـولات

الأخـرى . ان الحد الـذي يقف عنده علم العـالم هو اقـراره بجهله .

لذلك إذا أراد الانسان أن يسأل عن كـل شيء لما وصـل الى نتيجة . انما اسئلة الانسان يجب أن تدور حول ما هو لازم وضروري ومفيد ، سواء من حيث العلم أو من حيث العمل .

الافراط والتفريط في السؤال :

بعـد كل مـا سبق ، نلاحظ أن النـاس من حيث طرحهم لـلأسئلة إمـا أن يكـونـوا في جـانب الافـراط أو في جـانب التفـريط . فثمة اشخـاص لا هم لهم سوى القـاء السؤال اثـر السؤال ، وعلى الأخص في المسائل الدينية ، يحسبـون أنهم ينبغي عليهم أن يعرفوا كل شيء عن أي شيء ، غافلين عن ان الانسان لا يمكن ان يدعي هذا الادعاء بشأن مشهودات الطبيعة المحسّـة ، فضلاً عن المسـائل الـدينية التي تستقي ممـا فوق الـطبيعـة . وثمـة آخـرون في حـالـة تفـريط ، لا يستثيـرهم مجهول ، فتراهم وكأنهم في حالة من الاسترخـاء والضعف ، مـاتت فيهم غـريـزة حب الاستـطلاع والتحقيق ، حتى أنهم يتحرجون من السؤال عن اكثر الأمور ضرورة ، بل ان بعضهم يستنكف من طـرح سؤال ، لأنه يـرى في ذلك اعتـرافاً بعـدم المعرفة ونوعاً من الذل والاستجداء ، فيظلون طيلة عمرهم في ظلام الجهل . مع أن على الانسان أن يسأل عما لا يعرف ـ إذا كانت معرفته به لازمة ـ ممن يعرف ، سواء أكان العارف أصغر من السائل أم أكبر ، أرفع منه منزلة أم أدنى ؟

إن الوصايا الدينية تكثر من ذم الجاهل الذي يستنكف من

العلم . ولقد قيل ان على العالم أن يبذل علمه ، وعلى الجاهل ألاَّ يأنف من التعلم والسؤال وألاّ يعتبر ذلك نوعاً من الذل والرضوخ ، بل عليه ان يعتبره فخراً له ، فلا افضل من « عالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ وجَاهلٍ لا يَسْتنكِفُ عن أن يَتعلَّم » .

والحالة الوسط بين الافراط والتفريط هي أن يتبين المرء ما ينبغي عليه أن يتعلمه لضرورته له ، وما لا ضرورة لتعلمه ، أو ليس من الممكن تعلمه عادة ، فيضع الأسئلة حول المسائل التي يراها لازمة له ، فيختار الأهم فالمهم ، ويطرحها على الذين يستطيعون الاجابة عليها ، على أن يحتاط لئلاّ يصبح التساؤل وطرح الأسئلة غاية في حد ذاتها لا وسيلة الى غايته وهي رفع الجهل عن نفسه .

سبق ان ذكرت حديثاً للامام الباقر (ع) في مدح التساؤل : « ألا إنَّ مِفتاح العلم السُّؤال » كما أن الامام قد ذم الاكثار من الأسئلة التي لا موجب لها . يقول الامام لأصحابه : كلما سمعتم مني حديثاً فاسألوني ان استشهد لكم عليه من القرآن . أي أن ما يقوله الامام يستند الى القرآن . ونقل عنه أنه قال مرة : نهى الرسول عن ثلاثة : اللغو في القول ، والاسراف في صرف المال ، والاكثار من السؤال . فسأله احد الحاضرين عما إذا كان في القرآن ما يستشهد به على هذه الثلاثة ، فذكر الامام ثلاث آيات من القرآن ورد في كل منها نهي عن واحدة من تلك الأمور . قرأ في الأولى : ﴿ **لا خَيرَ فِي كثِيرٍ من نَجْواهُم إلاَّ مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْروفٍ أو إصلاحٍ بَين النَّاس** ﴾ ففي هذه الآية نهي عن لغو الكلام الذي لا خير فيه . وقرأ الآية الثانية التي فيها : ﴿ **وَلا تُؤتُوا السُّفهاءَ أموالَكُم الَّتي جَعَل الله**

لكُم قِياماً ﴾ أي لا تضعوا اموالكم التي هي قوام معاشكم بين ايدي السفهاء لأن هؤلاء يسرفون ويبذِرون . وعلى الرغم من أن الآيــة تشير الى مــال السفيـه نفســه ، إلاَّ انهـا تعبــر عنـه بـ(امـوالكم) اشارة الى ان كـل مال وإن يكن ملكـاً لشخص بعينه ، إلاّ انه في الوقت نفسه يخص المجتمع ايضاً بشكل من الأشكال ، فللمجتمع نصيب فيه . وان هذا الحق الاجتماعي هو الذي يجرد صاحب المال من حق تضييعه والاسراف فيه ، وعليه فان الآية تنهى عن تضييع المال . والآية الثالثة تقول : ﴿ لَا تَسألُوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكُم تَسُؤكُم ﴾ أي لا تسألوا عن كثير من الأشياء ، فقد لا يكون في الجواب عنها ما يفرحكم ، بل قد يسوؤكم . هذا نهي عن طرح بعض الأسئلة.

إذن فــالاســلام ينهى من جهــة عن الاكثــار من السؤال والافراط فيه ، ومن جهة أخرى يحث النـاس على ان يسألـوا عمَّا لا يعرفون مما هو لازم لهم وألاَّ يستنكفوا من ذلـك ، ولا يتهاونوا فيه .

إن الدين يشتمل على مجموعة من المبادىء والمعتقدات التي يجب على الفرد ان يتحقق منها بنفســه بصورة مبـاشرة ، وان يكون حقاً متعطشاً إلى معرفتها والتحقق منها ، ولا شك ان الله يأخذ بيد من يسعى سعيه ويجاهد فيه : ﴿ والَّذين جاهَدُوا فينا لنهْدِينَّهم سُبُلنا ﴾ .

ويشتمل الدين ايضاً على مجموعة من التعليمات والوصايا الأخلاقية والاجتماعية مما يجب على كل انسان ان يستوعبها ، كما أن فيه ايضاً تعاليم ينبغي تعلمها بالسؤال عنها.

- ٤ -

درس من الربيع



الرغبة في التنويع والتجديد :

من طبيعة الانسان أن يشعر بالملل من الرتابة ويميل الى التنوع والتجديد . ولكن لماذا ؟ لماذا يكون المرء في غاية التشوق للحصول على شيء ما ، ثم ما ان يناله حتى يخبو شوقه إليه وتخمد حدة رغبته فيه ، ويصاب بالبرود تدريجياً نحوه ، بل قد يبلغ به الأمر احياناً أن يشعر بالتعب والنفور منه ؟

لست الآن بصدد الدخول في تفاصيل ذلك . ولكن يرى بعضهم ان هذا من خصائص البشر الذاتية . فالانسان يريد دائماً الحصول على ما لا يملك وان التملك مقبرة الحب . إلاَّ أن هناك آخرين لهم نظرة أدق من ذلك ، فيقولون اذا كان الشيء مطلوباً حقاً بصورة غريزية ، فلا يمكن ان يكون الوصول اليه ونيله مدعاة للبرودة نحوه والنفور منه . ان في غريزة البشر وقرارة نفوسهم معشوقاً اسمى ، وحبيباً ذا كمال لا يتناهى . فكل محبوب يطلبه الانسان دون ذلك يكون في الحقيقة رمزاً يرى فيه المعشوق الأصيل والحقيقي الذي يصبو اليه ويتشوق ،

يحسب انه الحبيب المطلوب، ولكنه بعد الوصول اليه يرى أنه ليس مطلوبه الأصيل ، وانه غير قادر على ملء فراغ وجوده ، فيميل عنه بحثاً عن مقصوده الأساس ، وهكذا . وفي اليوم الذي يتصل فيه بمعشوقه الأصيل والحقيقي ، يكون قد بلغ كماله الحقيقي ، وهو الاتصال بالكمال غير المتناهى ، ويغرق في بهجة السعادة الكاملة ، ويتحقق اطمئنانه الدائم ، ولن يصاب بعدئذٍ بالكآبة والكسل والملل ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ .

لقد جاء في القرآن الكريم عن الجنة : ﴿ **لا يَبْغُون عَنْها حِوَلاً** ﴾ وهذا هو اختلافها عن النعم الدنيوية التي سرعان ما يضجر منها المرء ويملها وينفر منها ويطلب تغييرها وتجديدها ، ولكنه في الآخرة لن يرغب في تحويل ولا في تغير أو تجديد .

على كل حال ، ما من شك في ان الانسان في هذه الدنيا دائم الرغبة في التنويع والتجديد والتنقل من مطلوب الى مطلوب ، فالتجديد يبعث على الارتياح والبهجة ، خاصة إذا كان ذلك التجديد في ظروف الحياة وتنوع مظاهرها ، لأن ذلك يزيل الكدر والملل .

ولقد روعي هذا في التشريع ايضاً ، فقدْ خصص من كل اسبوع يوم ، ومن كل سنة شهر للعبادة . أي أن التشريع قد واكب التكوين ، فيُوم الجمعة من الأسبوع ، وشهر رمضان من السنة ، جعلا لتجديد الحياة المعنوية ، ولتحرير الفكر من الطلبات المادية المملة .

جاء في الحديث الشريف: « لِكُلِّ شيءٍ رَبِيعٌ ، ورَبِيعِ القرآن شَهر رَمَضان » . ويقول علي (ع): « تَعَلَّموا القرآن فإنه رَبِيعُ القلُوبِ » .

الشمس هي التي تبعث الربيع الطبيعي ، فبعد أن تكون قد ابتعدت عن الأرض زماناً ، تعود لتحيي الطبيعة الميتة بأشعتها الدافئة ، ولتوقظ الأرض النائمة . أما الربيع الروحي فان شمس القرآن المشعة توقظه في القلوب الميتة والأرواح الكئيبة . فينبغي أن نستفيد من الربيع الروحي مثلما ينبغي أن نستفيد من الربيع الطبيعي . يقول الرسول (ص) بخصوص الربيع الروحي ، أي شهر رمضان المبارك: « فاسألوا الله بنياتٍ صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لعبادته وتلاوة كتابه » .

حصة الانسان من الربيع :

يتكرر في القرآن الكريم الحديث عن هذا التجديد الحياتي الذي يطرأ على الأرض في الربيع ، ولكنه يرد على أنه درس وهداية للبشر وكيفية استلهامه والاستفادة منه . ان لكل فرد من ابناء الأرض من نبات وحيوان وانسان نصيباً من هذا الفصل الباعث على الحياة . فالأزهار والخضرة في هذا الفصل تصل الى قمة نموها وازدهارها وجمالها . وتصل الخيول والماشية والأغنام الى الكفاية من العلف ، فتسمن وتقفز وتمرح .

والانسان من حيث كونه انساناً ، له عقل وله ادراك ، كما ان له قلباً ومشاعر وعواطف ، وكذلك له نصيبه من هذا الفيض العام . فما هو نصيبه ؟

يعتبر فصل الربيع فصل الاحياء ، في نظر بعض الناس ، ودرساً نافعاً ، وهو عنده فصل الالهام يرى فيه اسراراً وحقائق مفيدة . ولكن الذي يدعو الى الأسف هو ان بعضاً آخر من الناس لا يستفيد من الربيع بأكثر مما يستفيد منه الحيوان . ان كل ما يستهويه من هذا التجلي الرائع في الطبيعة هو اتخام بطنه والشرب حتى السكر والعربدة والانحطاط الى اسفل دركات الحيوانية . انه ايضاً يأتيه الالهام في هذا الفصل ولكنه الالهام للايغال في الجريمة والقتل والفحشاء والفساد وتحطيم القيود الانسانية .

أليس من منتهى سوء الحظ ان يكون حاصل ايام بهذا اللطف والصفاء والروعة هو ظلمة العقل والروح ، وقساوة القلب ؟ اجل ، فكل اناء بالذي فيه ينضح .

فصل الربيع ، على كل حال ، فصل تجديد الحياة وعودتها ثانية الى ارضنا هذه . إنه فصل انبعاث الحياة في الأرض وازدهارها ونشاطها ، فصل تصبح فيه الأرض في ظروف جديدة تستعد فيها لتقبل اعظم هبات الله ، وهو عودة الحياة اليها مرة ثانية .

إن هذا التجدد في الحياة ، وهذه الحالة التي تنتاب الأرض يرد ذكرها في القرآن كثيراً ، اكثر من خمس عشرة مرة ، ولكن باعتبارها درساً وحكمة ينبغي التعلم منها .

الحقيقة وآثار الحياة :

إن السؤال عن حقيقة الحياة ما يزال بغير جواب ، لأن المعرفة البشرية لم تكشف عن اسرارها بعد . ويرى بعض

المحققين أن الستار لن يرفع عن هذا السر ابداً ، لأن هؤلاء يرون ان حقيقة الحياة وحقيقة الوجود أمر واحد ، فكما أن حقيقة الوجود عصية على التعريف والتحديد والتصور ، كذلك هي حقيقة الحياة أبعد ما تكون عن التعريف والتحديد والتصوير . وكما أن لحقيقة الوجود درجات من الضعف والشدة ، كذلك الأمر بالنسبة لحقيقة الحياة . فكل كائن يكون حظه من الوجود بقدر حظه من حقيقة الحياة . ان انبعاث الحياة في الأرض أو في اي كائن ميت آخر إنما هو العثور على درجة من الحياة أعلى وأكمل ، إذ ليس هناك ميت مطلق ، فالميت المطلق هو المعدوم المطلق.

ولكن على الرغم من أن حقيقة الحياة خافية على البشر ، أو انها غير قابلة للادراك ، فان آثار الحياة واضحة بينة . اننا وان لم نحس بالحياة ذاتها ، أي أننا لا نرى الحياة ذاتها ، لا نلمسها ولا نذوقها ، ولكننا نرى آثارها ونلمسها . آثار الحياة هي الظاهر والحياة هي الباطن . ومن هذا الظاهر نحن ندرك وجود ذاك الباطن ، من هذا القشر نصل الى اللب.

حقائق غير محسوسة :

ظهر في العالم أناس قالوا إننا لا نؤمن بوجود شيء إلاَّ إذا أحسسنا بوجوده بواسطة احدى الحواس مباشرة . ان الشيء الوحيد الذي يمكن الايمان بوجوده هو ذاك الذي يمكن ادراكه بالحواس ، فالذي لا يُحس لا وجود له . ولذلك نقول إن الطبيعة موجودة لأنها قابلة للاحساس أو اللمس مباشرة ، ونقول لا وجود لما وراء الطبيعة لأنه ليس قابلاً للّمس أو الاحساس به.

على الرغم من أن هذا المنطق ناقص بحد ذاته ، لأنه ليس هناك ما يدعو الى القول بأن ما لا أحس به لا وجود له ، فان فيه نقصاً اكبر من ذلك ، وهو انهم لم يتذكروا ان في الطبيعة نفسها حقائق مسلماً بها ولا يمكن انكارها وهي مع ذلك مما لا نحس بها باحدى حواسنا ولكننا نعرف بوجودها من آثارها المحسوسة ، كالحياة نفسها . ثم ان كل ما لا نحس به لا يلزم أن يكون من ما وراء الطبيعة . إن ما وراء الطبيعة غير محسّ ، ولكن ليس كل ما لا نحس به جزء من وراء الطبيعة .

إن العلماء الذين دققوا في هذه المواضيع تدقيقاً تاماً اثبتوا ان الكثير من الحقائق المسلَّم بها في عالم الطبيعة نفسه الذي نعيش في احضانه ونتربى في كنفه ، له وجود حقيقي مع أننا لا نستطيع الاحساس به احساساً مباشراً . ان ما ندركه بحواسنا بصورة مباشرة يكون مدركاً من حيث لونه أو شكله أو من حيث حجمه وكميته ، أو من حيث درجة حرارته ، أو من حيث نعومته وخشونته . إن أياً من هذه ليس هو المادة الخارجية عينها ، بل هي جميعاً من مظاهر المادة وآثارها . إن الحياة الطبيعية الحاصلة للأرض وابناء الأرض حقيقة مسلَّم بها وفي الوقت نفسه لا نحس بها ، ومع اننا محاطون من جميع الجهات بآثارها وتجلياتها ، إلاَّ أننا نحسب ان حواسنا تتعامل معها مباشرة . ما الذي نراه في الوردة ؟ نرى النمو ، ونرى الرواء والطراوة ، نرى اللون ونشم العطر ، وعن طريق هذه كلها نحكم أن في الوردة حياة . ان حكمنا هذا عن باطن هذه الوردة ، الذي هو حقيقة الحياة ، لم يصدر عن طريق حواسنا ، بل عن طريق قوة أخرى موجودة فينا ، هي أيضاً من

باطننا . إننا ندرك ظاهر العالم وقشره بظاهر وجودنا وقشره ، أي الحواس والأجهزة الجسمية فينا ، وندرك بباطننا وبلب وجودنا ، أي بالعقل والوجدان ، شيئاً من باطن العالم ولبه ، أي الحقائق غير المحسوسة .

اللب في القرآن :

ثمة تعبير رائع في القرآن، فحيثما يريد الكلام على الحقائق الخافية تحت الظواهر ، يقول ان الذين يدركون هذه الحقيقة هم (أولو الألباب) . واللب يعني المركز الخالص الذي نزع عنه القشر . وقد جاء في اللغة : ان اللب خالص كل شيء ، والعقل الخالص من الشوائب . كما ان الراغب الأصفهاني يقول في مفرداته : (اللب : العقل الخالص من الشوائب) . إذن اللب هو العقل الذي فصل عنه ما كان مخلوطاً به . انه لا يقول : عقل خال من الشوائب ، بل يقول عقل خالص من الشوائب ، أي منفصل عن الشوائب وذلك لأن العقل في بدايته يكون فجاً غير ناضج . تختلط فيه المحسوسات بالموهومات والمعقولات ، ثم تأخذ هذه بالانفصال بعضها عن بعض ، ويكون لها مقر خاص بها . فإذا وصل عقل الانسان الى تلك المرحلة التي يستطيع فيها التحرر من سيطرة الوهم والخيال والحس ، اطلق عليه اسم (اللب) إذ أن مَثَل العقل بالنسبة الى البدن إلى القوى الظاهرة المحسوسة ، كَمَثل اللب الى القشر في اللوزة أو الجوزة وأمثالهما . فهذه متمازجة في بداية أمرها ، لا يتميز قشرها من لبها ، ولكن عندما تتدرج في النضج يأخذ اللب بالانفصال عن القشر ويكون لكل منهما مميزاته الخاصة به واثره ، من دون أن

يختلط احدهما بالآخر.

إذا وصل الانسان في العلم الى درجة الكمال، انفصل عقله عن الحس والوهم والخيال، واصبح قادراً على تمييز الحكم الصادر عن كل منها دون ان يخلط بينها. في هذه الحالة يكون الشخص (لبيباً) أي من بلغ عقله مرحلة النضج والاستقلالية.

يقول العارفون إن مراحل الوجود الانساني تتطابق مع عوالم الوجود. إن الانسان في مراحل وجوده يكون ذا جبروت وملكوت وناسوت، وترتبط كل مرحلة من مراحل وجوده بمرحلة من مراحل العالم الكلي.

إن جهاز العقل والفكر في الانسان يزداد قوة عن طريق الحس والمحسوسات، فطريق الوصول الى المعقولات يمر بالمحسوسات. وقد دعا القرآن الى تدبر المحسوسات هذه، إذ بها يتم الوصول الى المعقولات، على ان لا نمكث في عالم المحسوسات طويلاً: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموات والأرض واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألباب** ﴾ أي أنَّ في هذه، وهي من القشور، دلائل على لب العالم وروحه، ولكن لا يصل الى ذلك إلَّا من كان هو نفسه من ذوي الألباب: ﴿ **الَّذين يَذْكُرون اللَّهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهم ويَتفكَّرون في خلق السَّموات والأرض، ربَّنا ما خَلقت هذا باطلاً سُبحانك فَقِنا عَذاب النار** ﴾.

وجاء في آية أخرى: ﴿ **فَبَشِّر عِبادي الَّذين يستمعون القول فَيَتَّبعون أحسَنَه أولئك الَّذين هداهم اللَّهُ وأُولئِك هم أُولو الألبَابِ** ﴾.

إن مـا يسمعه الانسـان يكون عن طـريق الاذن ، أي عن طريق حاسة السمع في الجسم ، والاذن لا تـميز بين ما تسمع ان كان خيراً أو شراً ، فليس من واجبها غربلة ما تسمـع . إلاّ ان في الانسان قدرة اخرى قادرة على تمحيص ما يرد اليها عن طـريق الاذن ، فتختبـر وتفـرق بين جيـده ورديئـه ، سليمـه وسقيمـه ، صحيحـه وكـاذبـه . تلك القـوة امـر بـاطن غيـر محسوس ، كما ان الـوظيفة التي تؤديهـا ليست من الوظـائف المحسوسة .

نعم ، إن الانسـان بقشـره والقسم الـظاهـري من عـالـم وجوده ، يحس بقشرة العالم الكبير وبقسمـه الظاهـر ، وبلب عالم وجوده غير المحسوس يتصل بباطن العالم ولبه وجـوانبه الكبيرة الغير المحسوسة .

سـأل شخص الامـام علياً (ع) : « هـل رأيتَ رَبَّـك ؟» فأجاب : « لم أعْبد ربّاً لم أره » ثم أضاف : « لم تَرَه العُيـون بمشاهدَةِ العيانِ ولكن رَأَتْهُ القُلُوب بحقَائِق الايمان » .

حدود الحـواس :

إن قـابليات الانسـان من حيث بنـاؤه الجسـدي محـدودة جداً ، وهو لا يستطيع البقاء إلاَّ في ظروف خـاصة من درجـة الحرارة والضغط الجوي والمـواد الغذائيـة وضمن فترة معينـة وفي مكان محدود . ولكنه في شقّه الباطن وروحه ليس مقيداً بحدود وقيود . ولو كان الانسان محدداً في جانبه الروحي بمثل تلك القيـود والأشكال والقـوالب لما استـطاع أن يدرك الكلي واللامحدود ، أي تلك القواعد الكلية الخاصة بالعلوم الطبيعية

والرياضية . وبما انه من حيث جسمه محدد بحدود الزمان والمكان والقدرات ، فكل ما يصل اليه عن طريق اجهزته الجسمية ، أي الحواس ، يكون كذلك ضمن تلك الدائرة المحدودة ، إلاّ ان هذا المحدود هو طريق العبور الى اللامحدود . ان البشر يسير من المحدود الى اللامحدود ، ومن الجزئي الى الكلي ومن النسبي الى المطلق . إذ ليس من الممكن للانسان ان يحس باللامحدود عن طريق احدى الحواس ولكنه يستطيع تعقل اللامحدود . انه يستطيع أن يرى اللامحدود بعين بصيرته لا ببصره ، ولكن ليس بالامكان حصر اللامحدود في المحدود واللامتعين في المتعين.

ثمة مثال يضربونه لقضية محدودية الادراك الحسي في الانسان ، فيقولون إن فيلاً قد أتي به من الهند الى مدينة لم يكن أهلها قد رأوا فيلاً من قبل ، وان يكن قد سمعوا باسمه ، فأوقفوه في زاوية مظلمة ، حيث كان الناس يتقدمون نحوه ويتحسسونه بأيديهم ، ثم يخرجون ويصفونه للناس . فالذي لمست يده خرطوم الفيل خرج يقول إن الفيل يشبه الميزاب . والآخر الذي لمس اذن الفيل ، قال انه يشبه المروحة ، والثالث الذي لمس رجل الفيل ، خرج يقول ان الفيل يشبه العمود ، والرابع الذي لمس ظهره ، قال انه يشبه السرير ، وهكذا .

القرآن والربيع :

يشير القرآن في بعض مواضعه إلى هذا الدرس الموحي فيقول : ﴿ وَتَرى الأرضَ هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عليهَا الماءَ اهتزَّتْ

وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بأنَّ الله هو الحقُّ وأنَّه يُحيِي المَوْتىٰ وأنَّه علىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

في عالم الوجود ـ سواء في الكائنات الحية أو التي لا حياة فيها ـ ثمة نـظام وتآلف وتنـاسق يظهـر العالم كله وكـأنه جسم واحد ، ترتبط اجزاؤه واعضاؤه فيما بينها برباط من الانسجـام يكشف عن وجود مشيئة واحدة وتدبير كلي يسود العالم كله في وحدة منسجمة فريدة . وعن ان اجزاء هذا العالم ليست متروكة الى ذاتها تفعل ما تشاء بغيـر ان يكون لهـا هدف معين ضمن المجموعة الكليـة في هذا النـظام الجبار ، بـل بالعكس، ان وضع العالم يدل على ان كل جـزء من اجزائـه وذرة فيه اشبـه بـالمسمار أو اللولب أو العجلة أو القضيب أو الأنبـوب الـذي ركب في معمل ليقوم بعمله ، وفي الوقت نفسه ينسجم عمله ويتزامن مع أعمال سائر اجزاء المعمل . أو كما جاء في تعبير القرآن ، ان جميع الموجودات في العالَم ، بكل قواها وقدراتها (مُسَخَّرةٌ) لمشيئة وإرادة واحدة . وهذا هو السبيل الذي يؤدي بنظامه وانتظامه في وظائف العالـم الى الاعتراف بوجود الناظم والمنظِّم . وان الانسان هو جزء من نـظام هذا الكـون ، خلق في احسن صورة وتقويم واتقان صنع ليرى الله من خلال آيات قدرته وحكمته في نفسه وفيما يحيط به من آفاق .

إلَّا أن هناك درساً آخر فيما يتعلق بالكائنات الحية ، وهو ان الله يهبها الحياة ، بالاضافة الى ما جعله من انتظام وانسجام بين اجزائها المادية . انه يهبها حقيقـة وكمالاً كـانت تفتقده . اننا إذا صغنا ذرات العالم الميتة بأية صـورة أو شكل وفي اي نظام وترتيب نشـاء ، فان ذلـك لا يوجـد فيها حقيقـة لم تكن

موجودة فيها ، ولكن الذي يحصل في الكائنات الحية ليس هذا التنظيم والترتيب فحسب ، بل تضاف الى ذلك حقيقة غير موجودة ، فالحياة لا وجود لها في المادة الميتة ، ولكنها توجد فيما بعد . والمادة ليس فيها احساس ولا ادراك ، ولكنهما يوجدان بقدرة قادر . ليس ثمة رغبة ولا حب ولا انفعال ، ثم تكون ، لا عقل ولا ذكاء ، ولكنهما يتخلقان .. لا حواس ولا لذة ، فتتهيأ . كل هذه غير موجودة في المادة اساساً ، ولكنها تطرأ عليها وتوجد فيها بَعدُ . ولهذا فاننا نرى الله في الكائنات الحية في صورة عفو وفيض وكمال ، وفي افاضة الوجود والكمال ، في فعلي القبض والبسط ، في الإحياء والأماتة ، انه يعطي ويأخذ ، يوجد ويعدم .

إن الآيات الواردة بهذا الشأن كثيرة ، بعضها يشير الى انبعاث الحياة في الأرض كدليل هاد إلى التوحيد ، وبعض آخر يصف يوم القيامة ، وبعض ثالث يشير الى الحالتين كلتيهما .

ـ ٥ ـ

انكار في غير محله

من المقولات المعروفة ان للعلم ثلاث مراحل . عندما يبلغ الانسان المرحلة الأولى يركبه الغرور والتكبر ، إذ ينظر الى ما ادركه من بعض مسائل العلم على أنه اصبح أعلم من عليها . فيرى نفسه افضل من كل فرد وأرفع ، وهذه هي مرحلة رؤية العلم والذات . وعند وصوله الى المرحلة الثانية ، تكون معلوماته قد ازدادت ، فتتجلى له عظمة الخلق ، فيستصغر نفسه وعلمه أمام عظمة ما يتجلى له ، فيأخذه التواضع ، وهذه مرحلة الرؤية الواقعية والمنظور الواقعي للعالم ، فينتقل من رؤية العلم الى رؤية العالم . فبدلاً من ان يتطلع الى ما عنده من علم يطلق بصره في العالم ويتفهم العالم بما لديه من معلومات ، حتى يضع قدمه على أعتاب المرحلة الثالثة ، وفي هذه المرحلة يعلم أنه لا يعلم شيئاً ، وهذه مرحلة الحيرة والاندهاش . في هذه المرحلة يدرك ان المقاييس والموازين الفكرية التي اختزنها في صندوق فكره أتفه وأحقر من ان تستطيع قياس هذا العالم العظيم . عندئذٍ يعلم أن مقاييسه العلمية والفكرية لا تصلح إلاَّ لمحيط حياته الخاصة وحسب.

هنالك بيت من الشعر أحسبه لمولوى ، يقول فيه :

(حاصل عمري ثلاث كلمات ليس غير
كنت فجاً، فنضجت، فاخترقت)

إن هذا الرجل العارف أوجز دورة سلوكه الروحي والعقلاني في ثلاث مراحل : مرحلة الفجاجة ، فمرحلة النضج ، ثم مرحلة الاحتراق . ان مرحلة الفجاجة والغرور والتكبر والنظر الى العلم شائعة بين الناس ، ولكن هل يمكن الوصول الى مرحلتي النضج والاحتراق ؟ ان لذلك حديثاً آخر.

غرور العلم الناقص :

مثلما ان الانسان يغتر احياناً بماله فيكون صريع جنون الثروة ، فيحسب ان ما يكتنزه من مال وثروة ، يشبع كل حاجة وانه يخلده في الدنيا : ﴿ **يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ** ﴾ ، أو قد يركبه الغرور بسبب ما عنده من مقام وجاه ، فيستولي جنون العظمة على تفكيره ، فينطلق ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل ، وقد يصل به الجهل والغرور حداً يقول معه كما قال فرعون : (أنا ربكم الأعلى) .

كذلك يمكن أن يستولي على الانسان احياناً غرور العلم ، وهو نوع من انواع جنون العظمة ، مع اختلاف ان جنون الثروة والجاه يحدث من كثرة الثروة والقوة بينما جنون العلم يحدث من نقص العلم وضعفه . يقال إن الوجود الناقص خير من العدم المحض ، إلاّ العلم فان عدمه خير من وجوده الناقص ، لأن العلم الناقص يؤدي الى ان يغتر المرء بعلمه

الناقص فيسكر ، ويعربد . صحيح أن جنون الثروة والعظمة يورث العربدة أيضاً ، إلاّ ان هذا الجنون ناشىء عن الكثرة والوفرة ، بخلاف عربدة جنون العلم الذي ينشأ من النقص والقلة ، وهذا يؤدي الى تكذيب الحقائق وانكارها . وهنا انقل اليكم حديثاً عن الامام الصادق (ع) :

عهدان أخذهما الله على البشر :

يقول الامام الصادق (ع) ان الله في آيتين من القرآن الكريم منع الناس من التصديق والتكذيب اللذين لا يكونان في محلهما . تقول الآية الأولى : ﴿ **أَلَم يُؤخَذ عليهِم مِيثاقُ الكِتابِ أن لا يقُولوا عَلَىٰ اللَّهِ إلاَّ الحَقَّ** ﴾ ؛ أي أن لا يقولوا من عندهم ما ليس لهم به علم ، فيحللون هذا ويحرمون ذاك متقولين على الله بأنه قال كذا وكذا هنا وقال كذا وكذا هناك . لقد اخذ عليهم عهداً أن لا يقولوا شيئاً حيثما سكت الله ولم يعين لهم واجباً ، لا ان يبتدعوا من انفسهم بدعاً ويضعوا لها احكاماً ، زاعمين انها من عند الله .

يصاب الانسان احياناً بمرض التصديق ، ففي المواضع التي لم ينزل الله احكاماً معينة ، واقتضت المصلحة ان يترك الناس احراراً ، يحاول الانسان ان يضع تعاليمه وينسبها الى الله . أو قد تسول له اهواؤه وشهواته ان يرتكب افعالاً قبيحة ، فيضع من عندياته ما يشاء من التشريعات ويقول إنها من عند الله : ﴿ **وَإذا فَعَلُوا فَاحِشةً قالوا وَجَدنا عَلَيها آباءَنا واللَّهُ أمرَنا بِها قُل إنَّ الله لا يأمُرُ بالفَحْشاءِ أتقُولُونَ على الله ما لا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

هذا عهد أخذه الله على عباده ألَّا يقـولوا مـا ليس لهم به علم ، وألا ينسبوا الى الله ما لم ينسبه الى نفسه .

والعهد الثاني هو قوله : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِما لَم يُحِيطوا بِعِلْمِهِ ولَمَّا يأتِهِم تَأويلُهُ** ﴾ إذا كانت ثمة مسائلٍ لا يدركونها جيـداً ، ولا يعـرفون بـواطنها وخـوافيهـا ، فبـدلاً من ان يقـولـوا : لا نعرف ، لا ندري ، عقولنا قاصرة عن فهمها ، يركبهم الغرور وجنون العظمة فيكذّبون ما لا يشهدون ويقولون لا وجود لشيء كهذا . ينكرون قبل الاحاطة والفهم .

للشيخ الرئيس ابن سينا كلمتان يقترب مضمونهما من هذا الكلام ، فيقول بخصوص التصديق بغير دليل : (من تعود ان يصدق بغير دليل فقد انخلع عن الفطرة الانسانية) أي أن انساناً هذا شأنه ليس انساناً .

وفي الكلمة الثانية يتناول انكار شيء بغير دليـل فيقول : (كل ما قرع سمعك من الغرائب فذره في بقعة الامكان ما لم يذدك عنه قائم البرهان) .

معرفة الحدود :

إن لكل امرىء من حيث جسمه وهيكله حدوداً ، وكذلك هـو من حيث الروح والعقـل والعلم ، فلكـل منهـا حـدودهـا وسعتها . فعلى الانسان ان يدرك حدوده ويعرفها ولا يتعداها : (العالم من عرف قدره) . إذ قد يعرف المرء في دنياه كثيراً من الأمـور ، ويحيط بعلوم عـديـدة كـالـريـاضيـات والـطبيعيـات والاجتماعيات ، ويعرف اخبار العالم وتاريخ الأمم وماضيها ، يقـدر حدود الأشيـاء وموازينهـا ، ولكنه يكـون جاهـلاً بقضية

واحدة ، وهي جهله بحدوده هو وبموازينه فلا يكون قد قاس روحه وفكره وعقله ، فكل تلك التي يحيط بها لا شيء بازاء هذا الذي لا يدريه ، لأن جهله هنا ينشأ عن الجهل بآلاف الأشياء ، ويتسبب في تكذيب كثير من حقائق الخليقة المسلم بها ، فيكون داعية الى الغرور.

في موضوع سابق ذكرت أموراً بخصوص محدودية جهاز الفكر عند الانسان ، وقلنا انه قد صيغ بحيث انه لا يستطيع ادراك اية حقيقة ، مهما تكن واضحة وظاهرة ، ما لم تكن لها نقطة مقابلة يقارنها بها . إن هذا النقص وحده يكفي ان يزيل من رأس الانسان كل غرور وزهو ، وان لا يكذب حقيقة بغير علم .

وذكرت في موضوع آخر ان القرآن يتناول احياناً قضية احياء الأرض في الربيع كدليل على التوحيد تارة وكنموذج مصغر للانبعاث وتبديل نشأة بنشأة تارة اخرى. ان الله سبحانه وتعالى ينبه الانسان على انه مثلما يوجد في نظام ارضكم الصغيرة حياة وموت ، كذلك يوجد هذا النظام في كل بذرة ، فهي تنمو في فصل وتحيا وتثمر ، وفي فصل آخر تكون البذرة جامدة خاملة لا روح فيها ، ثم تنبعث فيها الحياة مرة أخرى في فصل آخر . وهكذا هو الأمر في النظام الأعلى الكلي من حيث تبديل نشأة كلية بأخرى.

﴿ وَيَوم نَحشُر من كلِّ أُمَّةٍ فَوجاً مِمَّن يُكـذِّب بِآيـاتِنا فَهُم يُوزعُون حَتّى إذا جـاءوا قال اكـذَّبتم بآيـاتي ولَم تُحِيطوا بهـا عِلماً ﴾.

كل شيء إذا كثر وأصبح مألوفاً ، قلَّت اهميته . ومن هذا القبيل موت الأرض وحياتها . إننا في فترة اعمارنا نشاهد تلك السنة الجارية تكرر عشرات المرّات ، ولذلك فهي لا تستثير اهتمامنا .

إننا نعيش في خضم انظمة صغيرة وانظمة كبيرة ، ولا يعرف الى اين نصل من جميع الجهات من كل جهة نصل الى (لا نعلم) ، فمن جهة النظام الأصغر وصلنا الى نظام الخلية والذرة والنواة ، ولا ندري الى اين سنستمر في المسير . ومن جهة النظام الأكبر وصلنا الى المنظومة الشمسية التي هي جزء من نظام كوني اكبر وتابعة له ، ولا ندري ان كان هذا النظام تابعاً لنظام أكبر ، وهل هذا تابع لغيره أيضاً ثم ما الذي سنصل اليه بَعْدُ .

مثلنا مع العالم مثل الدودة في التفاحة أو في جذع شجرة . فدنياها وأرضها وسماها هي التفاحة أو الجذع ، وهي لا تعلم أن تلك التفاحة والجذع جزءان من اجزاء نظام اسمه الشجرة ، وان تلك الشجرة جزء من نظام اكبر اسمه البستان ، وان لتلك البستان مشرفاً وفلاحاً ، وانها جزء من نظام اكبر هو المزرعة أو الريف ، وهما جزء من بلدة أو مملكة ، وإن هذه جزء من الأرض ، وان الأرض كرة صغيرة في هذا الفضاء اللامتناهي .

كذلك هي حال عنكبوت ملتصق بسقف الغرفة ، يولد هناك ويموت هناك ، بغير أن يعرف ان تلك الغرفة جزء من بيت ، والبيت جزء من مدينة والمدينة جزء من بلد ، وهكذا . .

لا شك ان مدركات هذه الحيوانات بالنسبة الى مدركات الانسان صغيرة ومحدودة ، وان ما يعتبر عند الانسان من البديهيات ومن القضايا المسلّم بها يعتبر في نظرها مما لا يمكن تصديقه . هكذا هي حال الانسان بالنسبة الى العوالم الأكبر من عالمه الذي يعيش فيه .

هذا من حيث حجم العالم وسعته ، أما من حيث العوالم التي تحيط بنا والتي يرتبط بها تقدير حياتنا وتدبيرها ، فان ما يجهله الانسان عنها لا يعد ولا يحصى . من يدري ، فلعلَّ هناك عوالم يكون عالمنا بالنسبة اليها كنسبة عالم النوم الى عالم اليقظة .

في التحول الروحي الذي طرأ على الغزالي ، اثار موضوع النوم ، وقال إننا نرى في النوم عالماً ، ولا ندرك اننا لحظتها في عالم النوم ، وان النوم حالة هي جزء من نظام حياتنا الواقعية ، وان الأصل هو اليقظة . ولكن ما إن نستيقظ حتى ندرك تابعية النوم لليقظة . فكيف نعلم ان حالة حياتنا هذه في الدنيا بالنسبة الى حياة اخرى ليست حالة نوم ؟ ان يقيننا باصالة الحياة الدنيوية لا يزيد على يقين النائم بأنه ليس نائماً .

إن قولنا بأننا عندما نستيقظ ندرك اننا كنا نائمين ، وان العالم الذي رأيناه كان خيالاً لا حقيقة له ، بمعنى انه بالنسبة الى حياة أكمل يكون النوم هو الجزء الأصغر منها ، والجزء الأكبر منها هو اليقظة ، لا حقيقة له ، وإلاَّ فانه يكون بالنسبة لنفسه حقيقة لا خيالاً . فالحياة الدنيا بلحاظ ذاتها حقيقة ، ولكنها بالنسبة لمدار أكبر نوم وخيال : « النَّاسُ نِيامٌ فإذا ماتُوا انتَبَهُوا » و « الدّنيا مزْرَعةُ الآخرَةِ » .

قد تقع من يد الانسان احياناً حبة قمح من دون ان يدري بهـا ، فتندس في التـراب وتضيع ولا يحس بـوجودهـا احد ، حتى يأتي الربيع ، وإذا بالحياة تدب في الحبة وتخرج رأسها من تحت التراب معلنة عن وجودها المليء بالحياة ، وتقول : ها أنا ذا موجودة . أحسبتني قد ضعت ؟ لا ضياع في الأمر ، **﴿ قـالـوا مَـا لِهَـذا الكِتَـابِ لا يُغـادِرُ صَغِيـرةً ولاَ كَبِيـرةً إلاَّ أحْصاها ﴾** .

إن على الانسان قبل كل شيء ، أن يعرف حده الفكري من حيث النوع ، وكذلك من حيث الفرد ، أي ميزان معلوماته الشخصية لكي يمتحن مقدار قدرته وحدودها ، حتى لا يخرج عن تلك الحدود فيما يصدق وفيما يكذب ، فيما يثبت وفيما ينكر . عندئذٍ يكون مصوناً من الخطأ والزلل .

- ٦ -

جهاز الادراك عند الانسان

معرفة الأشياء بأضدادها :

(تعرف الأشياء بأضدادها) هذه العبارة شائعة على لسان العلماء ، وهي تعني ان الشيء يعرف من نقطة مختلفة عنه ، أو من نقطة مقابلة له . وعندئذٍ يمكن ادراك وجوده . بديهي أن المعرفة هنا ليست التعريف الاصطلاحي المنطقي ، لأن المنطق يثبت انه لا يمكن تعريف الأشياء عن طريق اضدادها . كما ان القصد من الضد هنا ليس ذلك الضد الاصطلاحي الذي يرد في الفلسفة باعتباره يختلف عن النقيض . انما المقصود من الضد هنا هي النقطة المقابلة والمقصود من المعرفة هو مطلق ادراك الشيء . وعلى الرغم من أن ادوات الحصر (الا) و (إنما) لم تستعمل في هذا التعبير ، ولكن المقصود نوع من الحصر هنا . إذا لم تكن لشيء ما نقطة مقابلة ، فلا يكون بمقدور الانسان ان يدرك ذلك الشيء ، حتى وان لم يكن ذلك الشيء خفياً ، بل جلياً تمام الجلاء . في الواقع ان المقصود هو بيان نوع من الضعف والنقص في جهاز

الادراك عند البشر ، والذي صنع بحيث انه لا يستطيع أن يدرك الأشياء إلّا إذا كان لها نقطة مقابلة .

فالنور والظلام ، مثلاً يدركهما البشر بالمقارنة بينهما . فاذا كان كل جزء من هذا العالم يسبح في النور دائماً ، بغير ظلام ، بحيث ان النور ينتشر بدرجة متساوية في كل الأرجاء والزوايا ، وينعدم الظلام كلياً ، لما كان بامكان الانسان ان يعرف النور نفسه ، أي لا يكون بمقدوره ان يتصور وجود النور في العالم مطلقاً وما كان ليدرك ان رؤيته للأشياء انما تتم بوجود النور . لأن النور أظهر كل شيء وأوضح من كل شيء ، انه الظهور نفسه ، ولكن ليس بالقدر الكافي وهذا النقص يرجع الينا ، لا الى النور . لأننا إذ ندرك النور الآن ، انما ندركه لأنه يأفل ويزول ، فيظهر الظلام ، وبمجيئه وبأفول النور ندرك انه كان هناك شيء كنا بتوسطه نرى الأشياء والأماكن . فلولا افول النور وغروبه لما لفت نظرنا اليه ابداً . وإذن ، فقد عرف النور بمعونة ضده وهو الظلام . ولو كانت الظلمة تعم كل شيء دون وجود نور ، لما عرفنا الظلام ايضاً .

كذلك الأمر إذا كان الانسان يسمع طول عمره نغمة واحدة رتيبة ، كأن يترعرع طفل بالقرب من محطة قطار ويسمع دائماً صوت صافرة القطار برتابة واحدة ، فانه لا يسمع ذلك الصوت الذي لا ينقطع ويرن في اذنه ، بحيث انه يفقد احساسه به . يقول احد العلماء القدامى ـ ولعله فيثاغورس ـ إن هناك موسيقى رتيبة تنبعث دائماً من حركة الأفلاك ، ولكن بما ان الناس يسمعونها دائماً فانهم لا يسمعونها ابداً . وهكذا إذا عاش الانسان في محيط طيب الرائحة أو خبيثها ، فانه لا يشم

تلك الرائحة بالمرة .

ولهذا السبب نفسه يفقد الأغنياء احساسهم باللذائذ والمتع ، كما يفقد الفقراء احساسهم بالمصائب والصعاب ، أي أن الذين يكثر وصولهم الى ما يوجب اللذة قلما يحسون بها ، والعكس بالعكس . كذلك الذين يواجهون المصائب اكثر يكونون اقل احساساً بصعوبتها ، والذين تقل مواجهتهم للمصائب يشتد احساسهم بها .

كذلك القدرة والعجز . فإذا فرضنا ان الانسان كان قادراً على كل شيء ولم يعجز امام أي شيء ، ولم ير في نفسه ولا في غيره عجزاً ، لما استطاع ان يفهم ان القدرة شيء موجود في هذا العالم ، وعلى الرغم من انه كان يحقق كل شيء بقدرته ، إلّا أنه لم يكن يراها ، ولو وجد العجز وانعدمت القدرة ، لما امكن معرفة العجز ايضاً .

وهكذا ايضاً العلم والجهل . فلو افترضنا عدم وجود الجهل في العالم ، لكان معنى ذلك ان الانسان يعرف كل شيء ، ولما احس بأنه لا يعرف شيئاً مطلقاً ، ولكان نور العلم يسطع على كل شيء فينيره له ، ومع كل ذلك فانه يكون غافلاً عن وجود العلم نفسه ، لأنه يرى كل شيء ويعلم كل شيء ويلتفت الى كل شيء عدا العلم نفسه . ولكن عندما ظهر الجهل امام العلم واستقبله الجهاز الفكري عند البشر ، امكن التنبه للعلم والالتفات اليه وادراك وجوده ايضاً لذلك فان الحيوان لا يدري بعلمه لأنه لا يدري بجهله .

هكذا ايضاً الشخص وظله . فلو كان الانسان يرى دائماً

ظل بعض الأشخاص دون أن يراها ذاتها ولو ظلت تلك الظلال امـام عينه دائمـاً ، لحسب تلك الظلال اشخـاصـاً حقيقيين . ولكن بما انه يرى الشخص وظله ، فانه يدرك ان هذا شخص وذاك ظله .

لأفلاطون نظرية فلسفية معروفة باسمه يطلق عليها نظريـة المُثُل يقول فيها إن كل موجود في العالم هو الظل لأصل حقيقي موجود في عالم آخر ، فذاك هو الحقيقة وهذه انعكاساته ، ذاك هو الشخص ، وهذه هي المُثُل ولكن يحسبون المثل حقيقة . ويضرب مثلاً .

يقول : فلنفرض ان عـدداً من الأشخاص قـد حبسوا في كهف منذ أول اعمارهم ، على أن تكـون وجوههم دائمـاً إلى داخل الكهف وظهورهم الى مدخله ، وان نور الشمس يدخل الى الكهف فتقع ظلال الأشخاص المتحركين خـارج الكهف على الجدار المقابـل . فبما ان هؤلاء يجهلون كـل شيء عن العالم خارج الكهف ، بل لا يعلمون أن هنـاك خارجـاً خارج الكهف ، فهم ولا شك يعتبرون تلك الظلال أشخاصاً حقيقيين ولا يدركون انها لا شيء ، وانها انعكاسات لأشخاص حقيقيين في الخارج .

إن الانسان ، وهو حبيس كهف الطبيعـة يحسب أشخاص هذا العالم حقائق ، ولا يعلم انها ظلال الحقائق ، لا الحقائق نفسهـا ، ولا يمكن ان يـدرك ذلـك إلاّ إذا رأى الأشخـاص الحقيقيين .

لم يكن قصدنا شرح نظريـة افلاطـون ، بل كـان القصد

تبيان ان بنية الانسان الطبيعية والعادية قد صيغت بحيث إنه يدرك الأشياء بعد مقارنتها بالنقاط المقابلة لها ، فإذا لم توجد تلك النقطة المقابلة ، لم يستطع ادراكها حتى لو كانت من أوضح الواضحات ، كالنور والظلام والعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والشخص وظله كما ذكرنا ، وكمثل الخير والشر ، والحركة والسكون ، والحدوث والقدم ، والفناء والخلود.

وعلى ذلك إذا تصورنا ان هذا النور المحسوس لا يغيب ابداً ، ولا يحجبه ستار ولا حائل ، وينتشر في الداخل بمثل ما ينتشر في الخارج وبدرجة متساوية في كل مكان وبشكل مطلق ، ثم جاءنا شخص يقول ان النور يغمر العالم ، وان كل شيء ترونه انما هو بسبب هذا النور ، ولولاه لما رأيتم شيئاً ، لكان من الصعب علينا ان نصدقه .

السمك والماء :

هنالك حكاية معروفة تقول إن السمكة التي لم تخرج يوماً من الماء ولم تر شيئاً غير الماء ، أخذت تتساءل : ترى ما هو واين يوجد هذا الماء الذي يتحدثون عنه كثيراً ويقولون انه سبب الحياة ؟ لماذا لا أراه ؟ وراحت تبحث عمن يدلها على الماء ، إلى أن صادف يوماً انها وقعت خارج الماء وأخذت تعاني من ضيق التنفس لانعدامه . عندئذٍ عرفت ما هو الماء ، وما فائدته لها ، وكيف ان حياتها متوقفة عليه .

الله نور مطلق وظاهر مطلق :

ان الله سبحانه وتعالى نور مطلق ، نور لا يقابله ظلام ، وهو نور العالم كله ، نور السماء والأرض: ﴿ اللَّهُ نُورُ

السَّمواتِ وَالأَرضِ ﴾ وهو أظهر من كل ظاهر وأقرب الينا من كل قريب ، وظهور كل شيء به ، وهو الظاهر المطلق بذاته : ﴿ وبِنُور وَجهِك الَّذِي أضاءَ لَـهُ كُلَّ شيءٍ ﴾ . إنـه نور ازلي سرمدي لا غروب له ولا أفول . نور يملأ كل الأرجاء بغير مانع ولا حجاب ، يحيط بكل شيء ، ليست له نقطة مقابلة وليس له ضد ولا ندّ.

وبما انه لا أفول له ولا غروب ، فلا زوال له ولا فناء ولا ظلام أمامه . إن الانسان الضعيف الذي يجب أن يدرك الأشياء بأضدادها والنقاط المخالفة لها بالمقارنة معها ، والذي صُنِـعَ جهاز ادراكه بحيث أنه لا يدرك الشيء إلاَّ بوجود نقطة مخالفة له ، فانه غافل عن التوجه الى ذات الله .

إنها لقضية غريبة . إن ذات الله الظاهرة التي لا تخفى ، خافية على الأبصار . لو انه كان ظاهر تارة وخفياً اخرى ، لما كان خافياً على الأبصار ، ولكن بما انه لا أفول له ولا زوال ولا تغير ولا حركة ، فانه خافٍ عن ابصار البشر.

وهذا معنى قول الحكماء الذين يقولون : ان شدة ظهوره ـ جل وعلا ـ ظهور في خفاء.

يـا مـن قـد اختـفـى لـفـرط نـوره
الـظاهـر الـبـاطـن فـي ظـهـوره

وما ألطف قول الامام علي (ع): « وَكلُّ ظَاهِـرٍ غَيْرَهُ غَيـرُ بَـاطِنٍ ، وكلّ بـاطِنٍ غَيْرَهُ غيـرُ ظَـاهِـرٍ» ان الله ، في وحـدتـه وبساطته ، باطن وظاهر في الوقت نفسه ، أي أنه ليس قسمـاً ظاهراً وقسماً باطناً ، وانما هو ظاهر من حيث كونه باطناً .

وأصل هذه الحقيقة ومنبعها هو القرآن الكريم : ﴿ **هُوَ الأَوّلُ وَالآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ** ﴾ . ويقول : ﴿ **أَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ ولقد قال الرسول الكريم (ص): « لو نزلتم بحبل الى طبقة الأرض السابعة فانتم تنزلون نحو الله » .

جاء في الأحاديث أن الجاثليق (من علماء النصارى) قال للامام علي (ع): « أخبرني عن وجه الرّبّ » حيث يقول القرآن : ﴿ **أيْنما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ . فدعا علي بحطب فأضرمه ، فلما اشتعلت النار ، قال : « أيْن وجهُ هذِه النَّارُ يا نَصْراني ؟ هَذِهِ النَّارُ مُدَبَّرةٌ مَصْنوعةٌ ولا يُعرفُ وجْهُها ، وخالِقها لا يُشبِهها . وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغرب فأينما تُولّوا فثمَّ وجه الله . لا تَخْفى عليهِ خافِيةٌ » .

معرفة النفس :

يقولون : معرفة النفس مقدمة على معرفة الله . فالانسان لا يستطيع أن يعرف الله ما لم يعرف نفسه أولاً . هذا كلام صحيح من جوانب متعددة ، لا من جانب واحد . فجانب منها هو أن على الانسان أن يعرف جهازه الفكري المستقبل . عليه أن يعرف ما فيه من نقص وضعف وقصور ، لكي يعرف الله بالكمال المطلق والقدرة المطلقة . عليه أن يعرف قصور فهمه وادراكه ، إذ ما لم يكن هناك كائن محدود وناقص ، وما لم يكن له ضد ونقطة مقابلة فلا يستطيع معرفته . ليس له أن يطمع في ان يقدر على معرفة الله باحدى حواسه . عليه ان يعرف انه لو كانت مدركاته الحسية على رتابة واحدة ، لو انه رأى دائماً لوناً واحداً ، لما عرفه ، لو أنه سمع دائماً صوتاً واحداً بنغمة واحدة ، لما ادركه ولا ادرك وجوده . لو كان دائماً

يشم رائحة معينة وبمقدار واحد ، لما تنبه الى وجودها . على البشر ألَّا يتصور ان الله خافٍ عليه ، بل عليه ان يدرك ان ظهور حقيقة واحدة لا تكفي لحصول الادراك عند البشر ، فلا بدَّ من وجود النقطة المقابلة . إن نور ذات الله محيط وازلي وابدي ، لا غروب له ولا أفول . ولذلك فان مدارك البشر الضعيفة قاصرة عن ادراك كنهه والاحاطة به .

الانسان المحدود يعرف الله ضمن حدود امكاناته :

إن جهاز الاستقبال الفكري عندنا يعرف الله بصورة ناقصة ومحدودة كنقصنا ومحدوديتنا . إنه يرى الله في نور موجود في نقطة وغير موجود في اخرى، مثل حياة الحيوان والنبات والاحساس الحاصل في نقطة من المادة . انه يعرف الله بأمور موجودة في وقت وغير موجودة في آخر ، أي تلك الأمور التي لها شروق وغروب . ان لله افعالاً ومخلوقات ، وانواراً هي من خلقه ، تلك الأنوار تشرق وتغرب . إن الله يعرّف نفسه الينا عن طريق انواره الحقيقية : الحياة نور إلّهي ، نور يبعثه في ظلمات المادة ، ثم يقبضه : ﴿ **وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُميتُ وَنَحْنُ الوارِثُونَ** ﴾ و ﴿ **تولِجِ اللَّيْلَ في النهارِ وتُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ وتُخْرِجِ الحيَّ من المَيِّت وتُخْرِجُ المَيِّتَ من الحيِّ وترزقُ من تشاء بغير حساب** ﴾ .

ان الحياة التي تظهر على الأرض محدودة من حيث المكان ومن حيث الزمان ، فهي تظهر في لحظة واحدة وفي نقطة واحدة ، فينتفع بها النبات والحيوان . والحياة ، بكل ما لها من تجليات ، كالنمو ، والجمال ، والشباب ، وحسن التركيب والنظام ، والاحساس والادراك ، والعقل والذكاء ،

والحب ، والعاطفة ، والغرائز الهادية ، تكشف لنا عن ذات الله . كل هذه آيات تعكس لنا الواجد الأحد.

كثيراً ما يستشهد القرآن بالحياة وآثارها، بجمالها وطراوتها ، بحسن تركيبها ونظامها ، بما فيها من الهام وغرائز، ومن حب وعواطف ومن حب أبوي وبنوي وزوجي .

لقد جاء على لسان ابراهيم قوله لنمرود : ﴿ ربِّي الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ . وجاء على لسان موسى قوله لفرعون : ﴿ رَبُّنا الَّذي أعْطَى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هدىٰ ﴾ . انه هو الذي اوجد نظاماً متقناً يرشد الكائنات الى الكمال اللائق بها . انه هو الذي منح كل نبتة القدرة على أن ترسم لوجودها خطة ، كالمهندس الماهر ، فتزين نفسها وتزهو. انه هو الذي وهب الغريزة الملهمة لأصغر الحيوانات والحشرات واكبرها ، بحيث ان العقل ليعجز عن وصفها . انه هو الذي ألهم النحل ان يبني لنفسه البيوت في الجبال بهندسة خاصة مستخدماً الأشجار وأغصانها : ﴿ وأوحىٰ رَبُّك إلى النَّحْلِ أن اتَّخِذِي من الجِبَال بُيُوتاً ومَن الشَّجَرِ وَمِمّا يعْرِشونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ فاسْلِكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ من بُطُونها شرابٌ مُخْتلف الوانُهُ فيه شِفاءٌ للنّاسِ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِقومٍ يَتفكَّرُونَ ﴾ .

حياة النمل في كلام علي عليه السلام :

يقول علي (ع) في نهج البلاغة : « انظُرُوا الى النَّملة في صِغَرِ جُثَّتها ولَطافة هيئتِها لا تكادُ تُنال بِلَحْظِ البَصَرِ ولا بِمُسْتَدْرَكِ الفِكر ، كيْفَ دَبَّت علىٰ أرضِها وصَبَت على رِزْقها ».

يقول علماء الحيوان الذين لهم دراساتهم بهذا الشأن ، إن بعض النمـل في بعض الصحـاري لا يـرضى في البحث عن رزقه من الحبوب بين بقـايا الحقـول ، بل يجتمـع ويستصلح أرضاً يزرعها بالفطريات ، ويتغذى عليها . والأعجب من ذلك قـولهم إن جماعـة أخرى من النمـل تروض بعض الحشـرات وتستعبـدها كمـا يروض الانسـان الخيـل والمـاشيـة والأغنـام ليستفيـد من لبنهـا ـ فتشـرب من عصيـر حلو تحلبـه من هـذه الحشرات.

ويستطرد الامام قائلاً: « تَنْقُلُ الحبَّة إلى جُحْرِها وتُعِدُّها ، في مُستقَـرِّهـا ، تجمـعُ في حـرِّهـا لِبـردِهَـا وفي وُرُودِهـا لِصَدرِها » .

ويعود علماء الحيوان ليقولـوا إن طائفـة أخرى من النمـل تعيش حيـاة اجتماعيـة منظمـة ، لكلٍ طبقـة منها واجبـاتهـا ، فجمـاعة العمـال تجلب الحب الى الجحور وتخـزنهـا لغـذاء جمـاعـة النمـل في الشتـاء، وتضعهـا في حجـرات خـاصـة بالطحن ، حيث تقوم جماعة أخرى من النمـل تمتاز بـالفكوك القوية فتطحن الحبوب وتعدها لطعام الآخرين.

ونعـود الى نهج البـلاغة والى قـول الامام (ع): « ولـو فَكَّرتَ في مجاري أُكلِها وفي عُلُوِّها وسُفلِها وما في الجوف من شـراسِيفِ بطنهـا وما في الـرَّأسِ من عيْنها وأُذُنِهـا لقَضَيْت من خَلْقها عَجَباً ولَقيتَ مِن وصْفِها تعباً » .

لقد قضى مئات العلماء حتى اليوم اعمـارهم في الدرس والبحث في هـذا المضمـار ، فكتبـوا المجلدات بعـد تعب

ونصب ، واتونا باعجب الأخبار ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالتفاهم بين افراد النمل وطرق ادراكها واحساسها.

وفي القرآن قصة عجيبة عن تفاهم النمل ، كما جاءت في حكاية سليمان في سورة النمل : ﴿ **حتَّى إذا أتوا على وادِ النَّملِ قالت نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمنَّكم سُليمانُ وجُنودهُ وهم لا يَشعرون فَتَبسَّم ضاحِكاً من قولِها وقالَ رَبِّ أوزِعْني أن اشكُرَ نعمَتَكَ الَّتي أنعمْتَ عليَّ وعلىٰ والديَّ وأن اعملَ صَالِحاً ترضَاهُ وادخلْني برحمتكَ في عبادِكَ الصالحينَ** ﴾ .

في قول الامام علي (ع) « ومَا في الرَّأسِ من عَيْنِها وأُذُنها » إشارة الى ان اجهزة بصر هذا الحيوان وسمعه كائنة في رأسه ، وقد ايّد اليوم علماء الحيوان ان النمل يستقبل الأخبار ويرسلها عن طريق مجسّات في رأسه .

وفي ختام كلامه يقول الامام علي (ع) « وَلَو ضَرَبْتَ في مَذَاهِبِ فِكْرِك لِتَبْلُغ غَايَاتِهِ مَا دَلَّتكَ الدلالةُ إلَّا علىٰ أنَّ فاطِرَ النَمْلَةِ هُوَ فاطِرُ النَّخْلَةِ لدقيقِ تفصيلِ كُلِّ شيء وغامضِ اختلاف كُلِّ حي ومَا الجليلُ واللَّطيفُ والثَّقيلُ والخفيفُ والقويُّ والضَّعيفُ في خلقه إلَّا سواءٌ » .

عل كل حال ، في الوقت الذي يقول فيه القرآن إن الله أظهر من كل ظاهر ، بل هو الظاهر الحقيقي « كُلُّ العالم بنوره يبين » ، فان طراز صنع الفكر البشري وبنائه جاء بحيث انه يستعين على درك الأشياء بنقاطها المقابلة لها ، فيعرف الله عن طريق تجلياته ومظاهره التي تشرق وتغرب ، الموجودة مرة ،

وغير الموجودة اخرى ، وبالأنوار التي تحتضن الظلمة ، وبالحياة المقترنة بالموت . ولهذا السبب يكثر القرآن من ذكر الحياة وآثار الحياة وتجليات الحياة وشؤون الحياة .

٧

العقل والقلب

الانسان ذو البعدين :

إن في روح الانسان بؤرتين أو مركزين ، وكل منهما منشأ نوع معين من الفعاليات والتجليات الروحية ، واحدى هاتين البؤرتين تسمى (العقل) أو (الحكمة) ، وتسمى الأخرى (القلب) . إن الفكر والتفكير والتبصر والمنطق والاستدلال والعلم والفلسفة جميعاً من تجليات العقل ، وهناك تجليات روحية أو نفسية ، كالرغبة والحب والتمني والانفعال ، وكل هذه تعزى الى القلب.

من البعد القلبي تنبعث الحرارة والحركة ، ومن البعد العقلي تبرز الهداية والاستنارة . ان من يملك قلباً كئيباً لا رغبة فيه ولا امل ولا أمنية ، كائن بارد ساكن جامد ، ولا تبدر منه أية فعالية . انه اقرب الى الموت منه الى الحياة . أما الذي يفتقر الى قوة العقل والفهم والتدبر فهو أشبه ما يكون بالسيارة التي تسير في الليل من دون مصابيح ولا أية وسيلة للاهتداء الى معالم الطريق.

في بعض الأحيـان يحصـل انسجـام وتـوافق بين هـاتين البؤرتين ، فقد يعجب القلب بشيء فيؤيده العقـل في ذلك . في أمثال هذه الحالات لا يواجه الانسان شيئاً من المشاكل ، ولكن كثيراً ما لا يحصل هذا الاتفاق ، فقد يحب القلب شيئاً لا يرى العقل ، بتبصره وحسابـاته انـه يستحق الحب . أو قد يؤكد العقل جودة شيء ما وصلاحه ، ولكن يصعب على القلب قبـوله والاقتنـاع به . هنـا يحدث الصـراع والنزاع بين العقـل والقلب ، وهنا يبرز اختـلاف بعض الناس عن بعض ، فمنهم من يخضع لحكم العقل ، ومنهم من يخضع لحكم القلب .

ولنضرب على ذلك مثلاً بسيطاً : لا شك ان كل شخص يحب ابناءه بحكم الغريزة ، ولذلك فهو يسعى لتوفير اسبـاب الراحة والرفاه لهم ، بحيث انه قد يستعذب العناء والتعب في سبيل ذلك . وتأتي قضية تربيتهم لتزيد من شقاء الأب ، وذلك لأن التـربية مهمـا تكن مـلائمـة ومهيـأة ، فـانهـا لا تخلو من المنغصات بالنسبة للأبناء ، في بداية الأمر على الأقـل ، وقد يضـطر الوالـدان الى تحمـل عـذاب فـراق ابنـائهمـا لغـرض الدراسة . ان هذا الفراق لشديد على قلبي الوالدين . فلو أراد الانسان أن يسير على هدى ما يريده قلبه ، فعليه أن يتخلى عن تربية ابنه ، وهي الطريق الوحيد لضمان مستقبله . وإذا ارتضى أوامر العقل ، فلا مندوحة له عن تجاهل رغبات قلبه .

وأرفـع من هذا هـو تربيـة النفس وتهذيبهـا . ان تهـذيب النفس وتزيينها بالأخلاق الانسانية من أصعب الأمور وأشقها ، وذلـك لأن العقل والقلب يقفـان في هذه الحـالة على طـرفي

نقيض، ان الصراع مع النفس الأمّارة بالسوء يتطلب نفحة قوية من العقل والايمان .

مر الرسول الكريم (ص) يوماً بجمع من الشبان كانوا يتبارون في رفع صخرة ثقيلة يمتحنون بها قوتهم . فقال لهم : أتحبون ان أكون الحكم لأشخص الأقوى من بينكم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . وقد ظنوا أنه سوف يختار منهم اقواهم عضلاً ، ولكن الرسول (ص) ، على خلاف ما ظنوا ، قال : اقواكم من إذا غضب أو فرح لا يخرج زمام نفسه من يد عقله . ليس اقواكم من امتاز بقوة العضل ، بل الذي يمتاز بقوة الروح .

إن الصراع بين العقل والقلب في ميدان تهذيب النفس وتثقيفها دائم قائم لا يهدأ . إلّا ان الهدف من تهذيب النفس هذا هو ايجاد الانسجام بين هذين القطبين المتناحرين ، وتشمل السيطرة على رغبات القلب . إن الضبط والتنظيم منبعهما العقل ، واللامبالاة والتقلب في الأهواء منشؤهما القلب .

الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر :

لقد أشار النبي الكريم (ص) في حديث معروف إلى هذه الحرب بأسلوب لطيف ، وقد كان وأصحابه عائدين مرة من الجهاد ، فالتفت اليهم وقال : « مرحباً بقَوم قَضَوا الجهادَ الأصغر وبَقِي عليهِم الجِهادَ الأكبرُ » فقالوا : ياً رسول الله ، وما الجهاد الأكبر ؟ فقال : « هُوَ مُجاهَدَة النفس ومجالَدَةُ أهوائها » .

وفي هـذا الصراع يتغلب العقـل احيانـاً ويخضع رغبـات القلب لارادته ، واحياناً اخرى يحصل العكس فيتغلب القلب ويجبر العقل على الانصياع لأوامره . والحالة الأولى واضحـة الدلالة والمعنى ولا تحتاج الى تفسير ، أما عندما يسيطر القلب على العقل فأمره يتطلب بعض الشرح والتوضيح .

تأثير القلب في أحكام العقل :

إذا كان عقل الانسان حراً فانه يقضي ويحكم في الأمـور كما ينبغي وكما هي في الـواقع ، فيـرى الخير خيـراً ، والشر شراً . أما إذا وقع تحت سيطرة القلب ونفوذه ، فسوف يحكم بما يهوى القلب ويحب ، لا بما يقتضيه الحق . ان العقل في ذاتـه قاض عـادل ، ولكن ينبغي الحفاظ على استغـلال قوتـه القضائية لكيلا تتسلط عليه السلطة التنفيذية بميـولها ورغبـاتها وأهوائها ، فان تسلطت عليه فلا ينبغي ان ينتظر منـه أن يكون عادلاً في احكامه.

من كلمات إمام المتقين علي (ع) قوله : « مَنْ عَشِقَ شَيئاً أعْشَىٰ بَصَـره وأَظْلَمَ قَلْبـه » والمقصـود هـو أنـــه في ظلمـات الحوادث التي يحتاج فيها المرء إلى النـور الذي يلقيـه العقل لهـدايتـه ، يعمي حب الشيء بصـره فـلا يـرى. ان الحب والبغض ، والصـداقـة والعـداوة ، تؤثـر في القضـــاء. يقـول الشاعر:

وعَيـن الـرِّضـا عـن كُـلِّ عيـب كـليـلةٌ
كمـا أن عيـن السُّخط تُبـدِي الـمَسَـاوِيـا

ولذلك فإن المرء ينظر إلى كل ما يتعلق به نـظرة اعجاب

واستحسان ورضى . ان في الانسان غريزة حب الذات . انه متعلق بنفسه اكثر مما هو متعلق بأي شيء آخر ، فهو ينظر الى نفسه والى ما يخصه بمنظار حسن الظَن دائماً ، أي أنه يقضي فيما يتعلق بذاته وبخاصته بما يرضي قلبه ، لا بما يرضي الحق والحقيقة . إنه يرى أخلاقه الرديئة جيدة ، ويحسب أعماله السيئة حسنة : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرآهُ حَسَناً** ﴾ ، ﴿ **تَاللَّهِ لقَدْ أَرسلنا إلى أمم من قبلِكَ فزيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالَهُم** ﴾ ، ﴿ **قُل هل نُنَبِّئُكُم بِالأخسرِينَ أعمالاً الّذين ضلَّ سعيُهُم في الحياة الدُّنيا وهُم يحسَبُون أنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾ .

ويقول أمير المؤمنين علي (ع): « المُؤمن لا يُصبح ولا يُمسي إلاَّ ونفسهُ ظَنُون عِنْدَهُ » أي أنه لا يحسن الظن بنفسه ابداً ، إذ يحتمل أن يصدر عنها عمل سيء في كل لحظة . إذا وصل المرء حقاً إلى هذه المرحلة ، مرحلة اساءة الظن بنفسه الأمَّارة واحتمال ارتكابها اثماً أو اتيانها عملاً قبيحاً ، فانه سوف يراقب نفسه ويمنعها من القيام بما لا يليق . والويل لمن لا ينزع عن عينه ابداً منظار حسن الظن بنفسه والاعجاب بها .

وعليه ، يتضح أن الانسان قد يقع تحت مؤثرات تجعل أحكامه سقيمة بحيث يخطىء في قضائه ، ويجانب العدالة ويفقد حرية عقله إذا سيطر القلب واهواء القلب عليه ، فلا يرى الانسان نفسه طاهراً ظاهرياً فحسب ، بل انه يعتقد في قرارة نفسه انه فعلاً نقي ولا عيب فيه مطلقاً ، ولا يمكن غير ذلك ، لأن شخصاً هذا مبلغه من عدم تحرر عقله ومنطقه لا يكون قادراً على ادراك الحقيقة ورؤية ما هو في الواقع . فكما

ان اعضاء الانسان واطرافه لا تستطيع الحركة إلاَّ إذا كانت طليقة حرة ، كذلك العقل والفكر . ان تقييد حركة الأعضاء والأطراف يكون بربطها بالسلاسل والقيود ، وتقييد العقل يكون بربطه بأهواء القلب وبسلاسل رغبات النفس من حب وكره وتعصب وما الى ذلك.

يصف القرآن رسول الله (ص) فيقول : ﴿ **يأمُرُهم بالمَعرُوف وينهاهُم عن المُنكرِ ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ ويُحرِّم عليهم الخبائِث ويضعُ عنهُم إصرهم والأغلال الَّتي كانت عليهم** ﴾ .

وما هذا الإصر وهذه الأغلال سوى تلك القيود التي تكبل عقول الناس وأرواحهم ، فرفعها الرسول عنهم بما زوّده ربّه من احكام وعقائد وأخلاق ونظم تربوية سامية .

حسن الظن بالذات وسوء الظن بالآخرين :

إن واحدة من العلل التي تسبب عدم نجاحنا في اصلاح المجتمع هو كون كل فرد عندما ينظر الى نفسه والى افعاله يضع منظار حسن الظن على عينيه ، ولكنه عندما ينظر الى الآخرين وأفعالهم ، يكون قد لبس منظار سوء الظن ، وتكون النتيجة ان احداً لا يرى نفسه مقصراً ، بل يرى التقصير في الآخرين . الجميع يتطلعون الى العدالة الاجتماعية دون ان يفكروا في ان العدالة الاجتماعية لا تتحقق إلاَّ إذا كان الأفراد عادلين : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنوا كُونوا قوَّامين بالقِسْطِ شُهَدَاء لِلَّهِ وَلَو على أنفُسِكُم أو الوالِدَينِ والأقربين إن يَكُنْ غَنيّاً أو فَقِيراً فاللَّهُ أولىٰ بِهِما فلا تتَّبِعُوا الهَوىٰ إن تَعْدِلُوا** ﴾ فهذه دعوة للناس

ان يجاهدوا في اقامة العدل ، وان يشهدوا في سبيل الله ، وان يكن على أنفسهم أو علي أبويهم أو اقربائهم ، بصرف النظر عما اذا كان غنياً أو فقيراً ، فالله أولى بهم منكم واحذروا ان تحرفكم أهواؤكم عن اتباع الحق.

إن من فوائد تربية الناس تربية دينية هي أنها تربي في اعماق نفوسهم ملكة الانصاف والعدل ، إذ لا شك في ان هناك فرقاً بين ان يكون المرء مؤمناً يعتقد ان الله شاهد على كل افعاله ونياته ، وان يكون المرء مجرد داعية للمصلحة العامة : **﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا عَلَيكم أنفُسكم لا يضرّكم من ضلَّ إذا اهتديتم ﴾** .

إننا نعلم ان رعاية اعمال الآخرين تعتبر في الاسلام جزءاً من الواجبات « كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته » ، ولكن ينبغي من جهة اخرى ان يطرد المرء من ذهنه تلك الفكرة الشيطانية القائلة ان المجتمع فاسد وان الآخرين فاسدون . ان فساد المجتمع أو فساد الآخرين ليس عذراً لنا امام الله في ارتكاب الفساد . ان واحدة من تسويلات النفس هي ان نلقي بذنوبنا على عواتق الآخرين.

اعتياد التعقل بحمل النفس عليه:

لكي ينجو الانسان من مخالب سطوة الشهوات التي تدمر الجسم والعقل والايمان والدنيا والآخرة ، لا سبيل امامه إلاَّ بتقوية سلطة العقل . وان من وسائل تقوية العقل هي ان يجعل تعقل الأمور والتفكر فيها عادة من عاداته ، بحيث إنه يستطيع تجنب الاستعجال في اتخاذ قراراته .

جاء رجل الى النبي الكريم (ص) وقال له: عظني يا

رسول اللهِ ، فقال : هل تتعظ إذا وعظتك ؟ فقال الرجل : نعم . فكرر الرسول (ص) سؤاله ثلاث مرات ، وفي كل مرة يرد عليه الرجل بالايجاب . واخيراً قال النبي (ص) : « إذا هَمَمْتَ بأمرٍ فتَدبَّر عاقِبتهُ » .

يظهر من تكرار النبي (ص) سؤاله على الرجل انه يولي اهمية كبيرة لنصيحته تلك ، يريد بها ان يؤكد ضرورة التعود على التفكير والتدبر ، وألا نقدم على عمل قبل ان نقلّبه على جميع وجوهه وندرس نتائجه وعواقبه .

إن على الانسان أن يتبع المنطق، لا المشاعر والأحاسيس . فالعمل الذي يقوم به الانسان بموجب المنطق ، يكون قد حسب لكل شيء حسابه ، والقى عليه ضوء عقله وتفكيره ، واستوعب ما يحيط بالأمر من جميع جوانبه . ولكن العمل الذي يقوم به المرء على وفق مزاجه ومشاعره ، بدون أن تكون هناك خطة ولا حساب أو تبصر ، وإنما استثير الانسان وهاج لأمر ما ، فأقدم على ذلك العمل لتسكين هيجانه وانفعاله ، وبلحاظ ما يثيره الغضب من ظلال وعتمة ، لا يكون المرء قادراً على رؤية العواقب والنتائج بوضوح .

إن عامة افراد البشر محكومون ، كثيراً أو قليلاً ، بكل من العقل والقلب . ان الجملة التي يقولها الإنسان أمام جمع من الناس ، أو العمل الذي يقوم به في المجتمع ، يرتبط من جهة بعدد من المشاعر والعواطف والانفعالات النفسية ، ويرتبط من جهة أخرى ، بما اعتوره من تدبر وتفكير ، للعقل والمنطق . إلّا ان بعض الناس يكون ألصق بالعقل والمنطق ، وبعض آخر ألصق بالعواطف . يقول علماء الاجتماع إن هذا الضرب من

الاختلاف ملحوظ حتى بين الأمم والشعوب ، فبعضها اقرب الى المنطق ، وبعضها اقرب الى المشاعر .

إن نصيحة الرسول الكريم (ص) تقول إن عليك ان تجعل المنطق دائماً سبيلك الى الوقوف بوجه طغيان العواطف وتسلطها . كن رجل منطق لا رجل عواطف. كلما تقدم فرد أو شعب نحو الكمال والرقي، يكون قد تقدم تدريجياً نحو المنطق والتعقل مبتعداً بنفس المسافة عن المزاج ان الاقتراب من حكومة المنطق، والخروج عن طاعة حكومة المشاعر ، دليل على نضج الروح وتكاملها . ان المرء في الطفولة ليس سوى مجموعة من العواطف والميول التي لا منطق فيها ، ولهذا فانه عاجز عن تدبير امره والمحافظة على مصالحه . ولذلك ما اسرع ما يمكن استغلال عواطف الطفل واستخدامها فيما يراد لها من توجيه . ولكن كلما تقدمت بالطفل السنون وازدادت تجاربه ، قويت فيه قوة العقل.

بديهي ان مجرد مرور الزمان وتقدم العمر لا يكفي ليجعل المرء رجل عقل ومنطق ، إذ أن هذه الفضيلة الأخلاقية ، مثل سائر الفضائل الأخلاقية الأخرى، تحتاج الى الممارسة والتمرين والمجاهدة . فثمة حاجة أوّلاً ، الى المخزون العلمي والرأسمال الفكري ، وثمة حاجة ، ثانياً ، إلى أن يلزم المرء نفسه مدة طويلة بالتمرن على التعمق في التفكير ودراسة النتائج والعواقب ، وضبط مشاعره الداخلية ، قبل اتخاذه قراراً حاسماً فيما ينوي القيام به من عمل.

إن من احاديث الرسول (ص) قوله : « ما أخافُ على أمَّتي الفقر ، ولكن أخاف عليهم سوء التدبير » .

وثمة حديث آخر منقول عن الرسول الكريم (ص) ضمن قصة تبين الفرق بين اتباع المنطق واتباع العواطف.

جاء رجل من الأعراب الى النبي (ص) وطلب منه ان ينصحه ، فرد عليه الرسول بجملة قصيرة: (لا تغضب) واكتفى الرجل بما سمع ورجع الى قبيلته . واتفق انه وصل في وقت كانت قبيلته تستعد لمقاتلة قبيلة اخرى على اثر حادث وقع بينهما . فثارت ثائرة الرجل على عادة رجال القبائل وتعصبهم القبلي ، فلبس لامة حربه والتحق بصفوف ابناء قبيلته . وعلى حين غرة تذكر نصيحة الرسول (ص) وان عليه ألا يغضب . فهدأ من روعه وراح يمعن الفكر ويضع الأمور في نصابها . ترى لماذا تسعى مجموعتان من البشر للاحتكام الى السيف فيما بينهما . فتقدم نحو صفوف العدو واعلن استعداده لدفع ما يطلبون من الدية من ماله الخاص. وإذ رأى أولئك منه هذه الفتوة والمروءة ، تنازلوا عن دعاواهم ، وانطفأت بالتعقل والمنطق النار التي كانت العواصف والانفعالات قد اشعلتها.

الفهرست